المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

مقامات ورسائل أندلسية

نصوص ودراسات



تأليف: فرناندو دى لاجرانخا (الشنتمرى)
ترجمة وتقديم: أبو همّام عبد اللطيف عبد الحليم

مقامات ورسائل أندلسية

نصوص ودراسات

المركز القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد: 2/392
- مقامات ورسائل أندلسية
- فرناندو دى لاجرانخا (الشنتمرى)
- أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم
- الطبعة الثانية 2010

هذه ترجمة لمقامات ورسائل أندلسية

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo.
E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

مقامات ورسائل أندلسية

نصوص ودراسات

تـألـيـــف : فرناندو دى لاجرانخا (الشنتمرى)
ترجمة وتقديم : أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

دى لاجرانخا، فرناندو
مقامات ورسائل أندلسية/ تأليف: فرناندو دى لاجرانجا؛
ترجمها وقدم لها: أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم.
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠
١٤٤ ص؛ ٢٤ سم
١ - المقامات العربية .
٢ - الرسائل العربية .
٣ - النثر .
٤ - الأدب العربي - التاريخ - العصر الأندلسى .
(أ) عبد الحليم ، أبو همام عبد اللطيف (مترجم ومقدم)

رقم الإيداع ٢٠١٠/٥٧٢٥
الترقيم الدولى I.S.B.N 978 - 977 - 479 - 988 - 6
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

محتويات الكتاب

تهنئة المؤلف

يتقدم المؤلف بأخلص التهنئات إلى العلامة الجليل الأستاذ إميليو غرثيه غومث بمناسبة بلوغه الخامسة والسبعين من عمره المديد ، لما أسدى إلى الفكر العربى الأندلسى من خدمات جليلة فى حياته العريضة والطويلة .

وتنويه المترجم

رحل العلامة الجليل الأستاذ إميليو غرثيه غومث ، مأسوفا على رحيله ، ورحل بعده تلميذه وصديقى الأستاذ فرناندو دى لاجرانخا الشنتمرى ، وكان لا يزال فى أوج عطائه العلمى فى الدراسات الأندلسية والأدب المقارن ، منصفا ومتعاطفا ، فإلى الأستاذين أهدى ترجمة هذا الكتاب إلى العربية التى أفنيا عمرهما فى خدمتها ، متذكرا ساعات جميلة قضيتها فى صحبتهما فى مدريد الجميلة لن تعود أبدًا !!

كلمة المترجم

إذا كان الشعر الأندلسى قد حظى بدراسات كثيرة فى اللغة العربية واللغات الأجنبية فإن النثر الأندلسى لم يحظ بمثل هذا النصيب ، وبخاصة مقاماته : فلست أعرف فى لغة العرب دراسة وقفت عليها ، اللهم إلا ما يجيء عرضاً ، أو ملحقا لدراسة الشعر ، وهو غبن كبير لضرب من الفن - أيا كانت قيمته - ما يزال فى حاجة إلى دراسة ، مهما كانت النتائج التى تفضى إليها ، ضرب من الفن كان ذا سلطان عظيم على الأذواق الأدبية أمدا بعيدا حتى العصر الحديث ، كتب فيه المويلحى ، وحافظ إبراهيم ، حتى العقاد فى مستهل حياته الأدبية ، وغير هؤلاء كثير ، حتى ارتأى بعض النقاد أن هذا الضرب من الفن هو الأب الشرعى للقصة العربية ، وقد أثر هذا الفن فى الأدب الأوروبى ، فيما يسمى بالقصة البيكارسكية ، وفى أدب الجدال والمناظرة ، وتلك مقولة تحتاج إلى تقصٍّ كثير نرجو أن نعود إليه فيما بعد .

دفعنا إغضاء الدارسين عن المقامات الأندلسية إلى ترجمة هذه الدراسات من الإسبانية إلى العربية ، علّها تكون خطوة فى هذه السبيل تقفوها خطوات ، خاصة بعد أن نشرت بعض مخطوطات كانت غير منشورة حين كتب المؤلف فصوله هذه .

تناولت هاته الفصول بعض الشخصيات التى سحب النسيان ذيوله عليها ، وإذا عرفت - على نحو ما - فهى معرفة أسوأ من النسيان - كما يقول المؤلف ، وقد غطت - كذلك - حقبا قلقة مضطربة ، منذ الفتنة المبيرة بسقوط الخلافة ، حتى الأعوام الأخيرة بسقوط غرناطة ، آخر درة جميلة فى عقد الإسلام الأندلسى ، زمن كان أحسن الأزمان ، وكان أسوأ الأزمان ، بين أيدينا كل شيء ، وليس بين أيدينا أى شيء كما يقول شيخنا العقاد - رحمه الله - فيما ترجمه عن تشارلز ديكنز .

كانت هذه المقامات أو هاته الرسائل صورة لهذا المجتمع الأندلسى آنئذ ، فى ربيع رجائه ، وفى زمهرير قنوطه ، فى جده الوقور الرصين ، وفى هزله اللاهى العابث ، هى موضوعات تعكس اهتمام هؤلاء الأدباء فى تلك الفترة التى كانت الأمور فيها

سارية إلى الإشاحة والإدبار ، وكانت شمس الازدهار والفناء تؤذن لأفول ومغيب ، فغلبت - آنذاك - على الطبع الصادق أوزار الصنعة وأصفادها ، وتزيا الجمال العاطل البرىء بثياب المبالغة والإفراط فى الزينة المجتلبة ، وعرف «مضع الكلام ، وصبغ الحواجيب » ، وآض وكد الكاتب - مثله مثل الشاعر فى الأعم الأغلب - أن يتقيّل من تقدمه ، وأن ينظر بعينه لا أن يودع فيما يكتبه زبدة ما أحسه ، وخلاصة ما شعر به ، أمست الكتابة - شعرا ونثرا - قصورا حمراء لفظية - كما يقول غرثيه غومث - مثقلة بالحلى والزخارف ، لكن موادها الأولية هشة ، بيد أن هذا الحكم ليس على إطلاقه ، فإنك تجد بين الحين والآخر حتى فى فترات الانحدار هذه نماذج رائعة تلفحك بحرارة الصدق ، وروعة الأداء ، خلافا لما يراه بعض ضعفه النقدة أو الكتبة أو «الببغاوات» فى لغة العرب واللغات الأخرى - الذين يقرفون الأدب العربى - فى عمومه - بكذب الشعور وتدليسه وغلبة الزخرف والبديع ، وفقر العاطفة والشعور ، وتلك شنشنة ما يزال يلوكها بعض الأميين وأشباه الأميين ، لكنها لا تثبت إزاء زكانة النظرة ، وحصافة الرؤية ، واكتمال أدوات البحث والنظر .

ربما تُتهم بعض هذه الموضوعات فى المقامات بأنها تافهة أو مبتذلة ، ورأينا أن كل موضوع صالح للكتابة إذا أراق عليه الكاتب من وهج نفسه ، وبلاغة تعبيره ، ومسألة شرف الموضوعات وتفاهتها لا مكان لها فى الأدب الصحيح ، المهم أن يتاح للتجربة فنان صادق ، قدير على أن يخرجها من وهدة البعثرة إلى قمة السبك والفن .

مؤلف هذه الفصول هو الأستاذ الدكتور فرناندو دى لا جرانخا ، أستاذ كرسى اللغة العربية وآدابها فى كلية الآداب والفلسفة بجامعة مدريد المركزية وحتى العام الماضى كان مدير مدرسة الدراسات العربية فى مدريد ، ورئيس تحرير مجلة «الأندلس» الذائعة الصيت ، والتى توقفت - للأسف الشديد - عن الصدور ، والتى ينبغى أن تنعى إلى عالم الفكر فى حزن وأسى لا ذعين !!

وقف الأستاذ جرانخا حياته على الفكر الأندلسى تاريخا وأدبا ، وبخاصة الجانب النثرى من هذا الأدب ، ويشاركنا فى هذا التراث فلقومه منه نصيب ، وهو تلميذ ومريد مخلص للمستشرق الكبير غرثيه غومث عضو المجمع الملكى للتاريخ واللغة فى إسبانيا ، والمجمع الملكى فى المغرب العربى ، ومؤلف الكتاب امتداد لمدرسة تقصر كل جهدها

- تقريبا - على حقل الأندلسيات ، ولا تكاد تباشر الأدب العربى الحديث إلالماً ، وتقف أمام هذه المدرسة مدرسة أخرى تهتم بالفكر العربى الحديث عموما ، والأدب العربى الحديث خصوصًا ، يرودها الأديب الألمعى الأستاذ بدرو مارتينث مونتابث رئيس جامعة مدريد المستقلة فى الوقت الحاضر ، وهى مدرسة ترى الأدب العربى لم يتوقف عند نهاية الأندلس ، وأن الأدب الحديث امتداد وتطوير وتحديث لهذا التراث الأندلسى الذى يشكل منظرا من لوحة الأدب العربى الضخمة ..

وللأستاذ جرانخا بحوث عميقة فى ميدان الأندلسيات ، وفى تحقيق التراث يتصدى للنصوص القديمة العسيرة فيترجمها فى دقة وأمانة حرية بالإعجاب ، ويكفى أن يقتحم عالم المقامات بكلماتها العوص ، وتعبيراتها الرازحة تحت وقر الصنعة والبديع ، وقد تصدى - وما يزال - لموضوعات كثيرة أبان فيها أوجه التأثير العربى فى الأدب الإسبانى ، وتتبع مسيرة ذلك التأثير فى حصافة ولوذعية ، ويبدو أن طول عشرته للمقامات نضحت فى أسلوبه ، فأسبغت عليه بعض وعورة يلمحها حتى القارئ الإسبانى ، سامتنى عنتًا فى ترجمتها إلى العربية ، وقد حاولت - أثناء هذا كله - أن أقترب من الأصل الإسبانى ما أمكن ، وألا أخون - فى الوقت ذاته - طريقة التعبير العربية التى درجت عليها ، ولم أتدخل إلا فى حالات نادرة جدا معلقا تعليقا يسيرا ، مفضلا أن يواجه القارئ العربى النص وحده ليرى ما يعن له ، وأعتقد أننى لا أشايع الأستاذ المؤلف فى كل ما ارتآه ؛ فإن بيننا لخلافا يتسع أو يضيق حسب المقام ، لكنه لا يغض - إطلاقا - من قيمة هذا الكتاب الجيد الذى لولا عرفانى بقيمته لما أقدمت على ترجمته إلى لغة قومى .

بقى أن أشكر الأستاذ الجليل جرانخا أن أذن لى بترجمة كتابه هذا ، ولم يضن علىَّ بوقته وجهده فى تذليل بعض الصعوبات ، وإماطة اللثام عن بعض الإغماضات التى ما كنت أراها واضحة ، وتيسيره لى الحصول على شىء من النصوص الأصلية فى مصادرها العربية من مكتبته العامرة ، لذا أنتهز هذه النُّهزة لأقدم له خالص شكرى وتقديرى .

بانتهاء ترجمة الكتاب حملته معى ، وشددتُ الرحال إلى قرطبة - عاصمة الخلافة التى شهدت ميلاد كثير من هذه الكلمات ، أو عبر بها أصحابها ، مشيت فى شوارع

الحى القديم فيها ، أنوء بذكريات الماضى المجيد ، حيث كان يدرج هؤلاء الأسلاف الكرام ، يتنفسون فى هوائها ، ويشربون من مائها ، وتضمهم أرضها الآن فى أحشائها ، أناجى أشباحهم ، وأخالط أرواحهم ، وتميتنى وتحيينى ذكراهم ، هنالك انعتقتُ من إسار الزمن ، وأحسست بالأبدية المطلقة تتمشى فى البدن ، وأملّى على قلمى هؤلاء الآباء هاتيك الكلمات التى غلبتنى فيها طبيعة الفن على طبيعة البحث ، آملا فى النهاية أن تصلح مستهلا لذلك الكتاب الذى أرجو أن أكون قد وفقت فى ترجمته .

فإن يكن توفيق فمن الله عز وجل ، وإن لم يكن فمن نفسى ، وحسبى أنه جهد المقل الذى لا يدخر من طاقته شيئا .

وعلى الله قصد السبيل .

أبو همام

قرطبة ١٠ من يناير ١٩٨١ م

مقدمة المؤلف

أجمع فى هذا المجلد بعض المقالات التى ظهرت فى نشرات متعددة ما بين سنة ١٩٥٨ وسنة ١٩٦٧ بالإضافة إلى مقال لم ينشر من قبل ، تدور حول بعض الأدباء الأندلسيين ، يتدرجون منذ النصف الأول من القرن الحادى عشر عندما كانت الخلافة فى قرطبة على شفا التمزق من فتنة مبيرة لم يكن فى ذرع أحد آنذاك أن يلم شتاتها ، وحتى منتصف القرن الخامس عشر حيث كانت مملكة غرناطة تعانى جراح الموت .

يضفى على هذا العمل وحدته هذا النوعُ الأدبى الذى مارسه هؤلاء الكتاب «السجع» أو النثر المسجوع ، شيء وسط بين الشعر والنثر ، حيث انتهى الأمر به إلى القضاء على النثر الكلاسيكى النبيل ، الرائق ، المحكم ، دون الوصول إطلاقا - حتى ولو من بعيد - إلى جمال الإيقاع ، والتعبير الباهر فى القصيدة ، هذا النثر الفنى - بدون قوانين مرسومة منذ مطالعها البعيدة ، ولا أطر معينة على مر القرون - كان المادة الجميلة التى صاغ فيها أوائل كتاب المقامات مؤلفاتهم ، حيث تسرى - جنبا إلى جنب - البلاغة البديعة والمعجم المتكلف فى خدمة موضوع أصيل وممتع ، هو أحد الأنواع الأدبية العالية الرفيعة فى الأدب العربى .

يمكن أن نعد الهمذانى - من أصل فارسى (توفى سنة ١٠٠٧) - أبا لهذا النوع ، وهو الذى - على أية حال - أوْلَى هذا الفن رعايته ، أما مقلده الحريرى (توفى سنة ١١٢٢) فقد احتذاه ، واضعا ثقله فى اختيار الكلمات الحوشية ، وعمله كله استعراض لأسلوب معقد ، وتحدٍّ لأكثر القراء استعدادا ، كان كلاهما الفنانين الكبيرين اللذين من المحتم أن يكون لهما - حتى أيامنا هذه - مئات من المقلدين جاءوا فى المؤخرة دائما ، ومئات من الشراح المدققين .

إن إسبانيا الإسلامية التى كانت مفتوحة على كل التيارات الجديدة فى الأدب المشرقى قد استقبلت فى بهجة مجموعة مقامات الحريرى ، بتقديم أحد الأندلسيين

وشرحه ، كان قد درسها على المؤلف نفسه ، وهنا أيضا وجدت المقامات مقلدين وشراحا ، حفظت لنا المصادر الأندلسية أسماءهم ، ولم يكن يبقى لنا من الأوائل إلا هذه الأخبار ، ونحتفظ من الآخرين بشرح قيم ، صنفه عالم من شريش هو أحمد بن عبد المؤمن الشريشي (توفى سنة ١٢٢٢) نشر مرات متعددة في المشرق ، وعاد الآن إلى الظهور في القاهرة في خمسة مجلدات كبار ، في طبعة جيدة حققها العلامة المصرى أبو الفضل إبراهيم .

يبدو أن المقامة الكلاسيكية مضمونا وشكلا لم تصادف في الأندلس من يستمر في كتابتها ، إذا استثنينا التي ما زالت قيد الدرس ، وحتى مخطوطة ، لكنها مذكورة في كل أنحاء العالم (معلوم على السماع) وهي مقامات الأشتركوى (المتوفى سنة ١١٤٣) من خمسين مقامة ، وهو رقم كلاسيكي كذلك ، وفيما يبدو تراعي قواعد مقامات الحريرى .

لندع جانبا الأخبار المتعددة عن كتّاب آخرين ، وهي أخبار عن أولئك الذين ليس في الإمكان أن نفيد منهم أدنى فائدة ، أولئك الذين فُقدت مؤلفاتهم ، ولم نحتفظ من المقامات الأندلسية التي لدينا لا ببنائها ولا بموضوعها الأصلي ، حُفظ الاسم ليس إلا ، اسم عظيم الشهرة ، وعلى نمط ما حدث في المشرق ، فإن هذا الاسم المشهور من الممكن أن يكون مقدمة لرسالة في الطب ، وخديعة تجعل القارئ يتوغل في أسرار التصوف ، ومدخلا لمؤلف جغرافي ، وقناعا لأبحاث شرعية ، إلى آخره ، إلى آخره : كل هذا من الممكن أن يندرج في المقامة .

بطل المقامات القديمة هو الصعلوك البليغ ، المحتال ، المتسول المزيف ، العبقرى ، المستهتر ، وهو - في النهاية - الجد الروحي القديم لقزمان الفراتشي ولأصدقاء ميمي بنسون(*) : Mimi Pinson أو فيلكس كرول(**) : Félix Krull ، وقد اختفى - وهذا ما ينتظر منه - من الباب الخلفي .

(*) ميمى بنسون : بطلة رواية «مشاهد من الحياة البوهيمية» للكاتب الفرنسى هنرى ميرجيه ١٨٢٢ - ١٨٦١ - المترجم .

(**) فيلكس كرول : بطل رواية «اعترافات المحتال - الشاطر» لتوماس مان ، الحائز على جائزة نوبل - المترجم .

ومن جراء ذلك انتهى الأمر إلى الخلط – سواء فى الشرق أو الغرب – بين المقامة والرسالة (بالمعنى الواسع للكلمة الثانية) عندما امحت من الأولى كل معالمها حاشا السجع الذى كان خصيصة جوهرية فى الرسالة الأدبية .

تنتقل كلمة مقامة إذن لتدل على كل تمرين بلاغى فى نثر مسجوع ، مطعم بالشعر أوْ لا ، مستوحى من أى باعث : تهنئة لقاضٍ عين حديثا لمدينة ما ، مصاحبة لسفط من فاكهة باكورة ترسل هدية ، وصف منظر ، حكاية حادث ذى أهمية ضئيلة ، حوادث الأسفار ، الاعتذار ، المدح ، أو الهجاء ، أو ببساطة تسلية المؤلف ، أو إزجاء الوقت ، أى باعث صالح . يدعى هذا التصنيف المتدثّر حتى الاختناق بكل الاستعراض فى اللغة ، والبلاغة ، والحذلقة إلى درجة الإغماض – رسالة أو مقامة دون تمييز ، ودون مبالاة بالموضوع (هذا إذا كان ثمة موضوع) وإن كانت الرسالة لا تزال كثيرا – تتخذ المصطلح الأكثر شيوعا ، هكذا وصل الأمر إلى هذا الحد ، لدرجة أن نوعا أدبيا له كيانه المتميز هو المفاخر – تقليد عريق أيضًا فى إسبانيا فى حدودها الإسلامية والمسيحية – قد انتهى كذلك إلى فقد اسمه ، وأطلق عليه رسالة على السواء .

كان فى نيتى منذ البداية أن أعنون هذا المجلد «مقامات أندلسية» فقط ، لكنى فى النهاية فضلت أن أعرِّج أيضًا على الرسالة ، لكى أعوِّل تماما على العناوين التى خلعها عليها كاتبوها ، أكثر من تعويلى على المضامين التى تحتويها ؛ ليس ذلك لأننى أعتقد أنهما كانا فى الأندلس ضربين مختلفين ؛ ولكى نرى إلى أى حد كانا مترادفين بالنسبة إلى الكتاب الأندلسيين ، مقامة أو رسالة ، فإنى أقدم مثالين من حقبتين مختلفتين ، يفضيان وحدهما بالمراد .

ضم ابن بسام (القرن الثانى عشر) فى الذخيرة «فصولا من **مقامة** تعرب عن حفظ كثير «لأبى محمد بن مالك القرطبى » (الذخيرة ١/٢ ، ص ٢٧٤) وعليه فإنه فى نهاية النص المرفوع إلى ابن صمادح صاحب ألمرية يعلق الكاتب الكبير : «ومد ابن مالك فى **رسالته** هذه أطناب الإطناب ، وشن الغارة فيها على عدة شعراء وكتاب» (الذخيرة ١/٢ ص ٢٧٥) .

النموذج الثانى ما زال أكثر دلالة ، وهو عبارة عن فقرة من ترجمة للقاضى المالقى أبى عبد الله بن العسكر من زميله أبى القاسم النباهى ، من القرن الرابع عشر (المرقبة العليا . القاهرة ١٩٤٨ ص ١٢٣) يشير فيها إلى أحد مصنفات الأول : مقامة سماها «رسالة ادخار الصبر وافتخار القصر والقبر» أى أنه لا الأول ولا الثانى كان لديهما وعى بأنهما نوعان مختلفان .

أستخدم متعمدا (مازلت أتحدث عن عنوان هذا الكتاب) مصطلح أندلوث Andaluz فى موضع العربى الأندلسى .Arábigoandaluz – ولست أستخدم مطلقا مصطلح أندلسى Andalusi الذى إذا جعلناه إسبانيًا كانت له بعض رائحة التحذلق ؛ لأن كل الأدباء الذين أتحدث عنهم – فضلا عن أنه لا يبدو خطأ – حاشا ابن غالب الرصافى البلنسى (فى الفصل الخامس ، وفى الواقع الدقيق ملحق الأول) وقد ولدوا فيما يسمى حاليا أندالوثيا Andalucia(*) .

أريد أيضًا أن أسوغ ظهور هذا الكتاب ، فإننى منذ عشرين سنة أنشأت أجمع مادة علمية لدراسة النثر الأدبى الأندلسى ؛ لكى أكتب فى يوم ما بحثا مطولا حول موضوع مهجور ، وفى ذلك الحين لم يكن الشعر الأندلسى «ساندريلا» الدراسات المشرقية كما يطلق عليه الأستاذ غرثيه غومث (الذى يشكر له كثير ما قدمه من جانبه ، إذ خلصه من قيوده حتى غدا أميرة) ، والذى – فضلا عن ذلك – غنم من يده حياة منذ ذلك الحين ضرب آخر من الشعر – الموشحات والزجل – هذه الحسناء النائمة فى غابة الأدب الأندلسى ، ولأنه أيضًا أطلق عليها اسم البطلة عند إخوان جريم : Los Hermanos Grimm (**) أقول بدأت فى جمع المادة وترجمة الكُتَّاب ودراستهم ، مادة متناثرة فى مصنفات ابن بسام ، وابن خاقان ، وابن الخطيب ، والمقرى ، بعضها مطبوع – سيئا أو جيدا – وبعضها الآخر مخطوط ، وعبر سلسلة طويلة من تقلبات الحظ صحبت هذه المجموعة من النصوص قدمت فحسب فكرة عن جانب صغير فى

(*) يطلق هذا المصطلح على جنوب اسبانيا ويشمل فيما يشمل قرطبة وغرناطة وأشبيليه . المترجم .
(**) إخوان جريم : كاتبان ألمانيان مشهوران ، ولهلم ، ويعقوب يشكل الفلكلور المادة الرئيسية فى مؤلفاتهما ١٧٨٦ – ١٨٥٩ ، ١٧٧٥ – ١٨٦٣ على التوالى – المترجم .

نشرات يقرؤها المتخصصون فقط ، لكنها لا تصل إلى القراء المثقفين أو بتعبير أفضل لا يصل إليها مثقفو القراء ، أو يصل منهم قليل فقط ، بعض هؤلاء قد حثونى أكثر من مرة على إعادة نشر هـذه الفصول فى كتاب ، وربما لأننى وجدت أمامى فرصة سانحة أمام إلحاح كريم من صديقى العزيز فرانسسكو أوتراى مدير المعهد الإسبانى العربى للثقافة - الذى أشكره مخلصا - أو ربما لكى أجبر نفسى أن أستأنف عملا كان مهجورا تقريبا حال التفاتى إلى أعمال أخرى ، يظهر الآن بعضها من جديد ، تظهر - تقريبا - فى الصيغة ذاتها التى خرجت بها فى حينها مع إضافة هامش أو أية إضافة مناسبة اعتقدت ضرورتها .

وفى نهاية تقديم هذه السطور إلى جمهور القراء - (آمل) أن يكون عددا طيبا - أشير إلى الأماكن التى رأت فيها النور هذه الفصول .

لم يترجم شىء من هذه النصوص التى ترجمت فى هذا الكتاب ، والتى تشكل منتخبات يسيرة - أو بتعبير أكثر تواضعا - تشكل نماذج بسيطة لما كان عليه النثر الأندلسى فيما بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر ، لم يترجم منها شىء قبل ذلك (ولا بعد ذلك حيث يبلغ علمى) إلى لغة من اللغات ، كان أغلب هؤلاء الكتاب مجهولين تماما ، وفى بعض الأحيان - وهذا يكاد يكون أسوأ - معروفين على غير حقيقتهم ، لأنهم عولجوا بطريق غير مباشرة فى دراسات أساسية ، وبأخطاء انسحبت إلى دراسات لم تستخدم المصادر الأصلية .

يغمرنى السرور - وليُسمح لى ببعض زهو فى هذه المقولة - أن بعض هؤلاء الأدباء - الأدباء الإسبان فى نهاية الأمر لم يكن لاسمهم أية دلالة ، ومنذ أعوام انتهى بهم الأمر إلى الانضمام إلى تأليف فى تاريخ الأدب العربى ، وأنهم قد وجدوا مكانهم فى دائرة المعارف الإسلامية وأنهم موجودون حاليا فى بعض الدراسات حول موضوعات أدبية أو تاريخية فى الأندلس حررها مستشرقون إسبان وأجانب ، وإن كان بعضهم يحتال عند الإشارة إليها ، فيذكر - عند الإشارة إلى هؤلاء الكتاب - النصوص العربية التى أشرت إليها أنا ، آخر هؤلاء الذين درستهم الفقيه عمر المالقى - من جانبه ومن وراء ظهرى - بدا فى ثياب جديدة فى صدر صفحات مجلة شهرية تصدر فى مالقة ، ووصل أيضًا إلى أن يطل برأسه فى صدر صحيفة مدريدية .

كم يروق لى أن تصل هذه الشخصيات وأعمالها حتى وإن كان بعضها قد فقد فى الترجمة – بصورة حتمية – الرونق ، وفقد بعضها الآخر نضارة الأصل إلى أن يهتم بها بعض القراء القلائل البعداء عن حقل الاستشراق ، وإذا انتهى الأمر بهذه الشخصيات – مع مرور الزمن – إلى أن يجدوا زاوية صغيرة فى تاريخ الأدب الإسبانى ، فى ظلال إخوانهم الكبار (ابن حزم ، وابن زيدون ، وابن قزمان ، وآخرين من الذين يستحقون الظهور فى ذلك التاريخ) فسوف يكون هذا الغبطة الكبرى التى فى وسعها أن تقدمها إلىّ ، وتصبح تلك الساعات التى أنفقتها فى دراستها فى موضعها الصحيح .

فرناندو دي لاجرانخا

مدريد ٨ من ديسمبر ١٩٧٥ م

الفصل الأول

رسالتان لأحمد بن برد الأصغر

أحمد بن برد الأصغر هو أحد الشعراء الذين حظوا بصيت كبير بين جماعة الشعراء الأندلسيين ، أعطاه مكانته اللائقة به ثلاثة من مشاهير مصنفي المختارات في الأندلس : ابن بسام(١) ، وابن خاقان(٢) ، وابن سعيد(٣) ، يتناثر شعره أيضًا ليس في التراجم التي تتحدث عنه فحسب بل في الكتب ذات الطابع التاريخي ، وقد أبرز علماء الغرب مكانة ابن برد وقيمته كذلك .

كان ابن برد الأصغر أيضًا كاتبًا متميزًا في النثر ، وقد تعاطى السجع الذي وافق هوى النقاد الأندلسيين الذين قرظوا رسالته في السيف والقلم .

أركِّز في هذه الصفحات فحسب على نثره الذي اخترته ، وترجمت منه رسالتيه : رسالة «السيف والقلم» ، وأخرى بعنوان «رسالة في النخلة» .

أسرة بني برد :

ينتمي أحمد بن برد – كما يخبرنا كل الذين تحدثوا عنه – إلى أسرة ذات شأن في قرطبة ، سواء في مجال الكتابة أو السياسة ، وهذا صحيح ، إذا تذكرنا جده أحمد بن برد الأكبر ، شخصية تبرز في الصدارة في لحظات متعددة وحاسمة في تاريخ الخلافة من بداية العامريين ، شخصية تؤثر في سير الأحداث من وراء حجاب ، وفيما يختص بأنه كان يستطيع الاحتفاظ بمنصبه الرسمي كاتبا للرسائل (أو أمين الدولة كما يسميه دوزي) خلال سنوات طويلة تميزت بالاضطرابات المبيرة في نهاية الخلافة التي تغير فيها شخص الخليفة أكثر من مرة يكشف لنا هذا بوضوح إلى أي حد كانت مهارته ونفوذه في مكان عظيم ، وقد شارك – بشكل بارز – في لحظات جد حرجة ، كلفت آخرين حياتهم بسبب اشتراكهم فيها .

أخذ أحمد بن برد الأصغر من جده اسمه وكينته أبا حفص ، ولهذا السبب خلط بينهما مرارًا ليس الدارسون العرب وحدهم ، بل بعض الدارسين الأوروبيين كذلك .

أما اللقب الذى يميز بينهما : الأكبر أو الوزير للجد ، والأصغر أو الكاتب للحفيد ، فإنه لا يظهر بصفة دائمة فى المصادر القديمة عند الحديث عن أحدهما .

ما صنف، أحد ترجمة كاملة عن الجد أو الحفيد ، ولا أحد – فيما أعلم – درس أعمالهما خاصة ، والأخبار التى نقلها إلينا مترجموها هى فقط موجز مقتضب لحياتهما ، أو على الأكثر مديح معهود ، مبالغ فيه .

أما عن شخصية الجد البالغة الأهمية ، فإننى أحيل القارئ إلى مقال سأنشره قريبًا حين أنتهى من دراسة أعماله(*) ، يكفينا أن نقول إنه برز شخصية نابهة فى عهد المنصور ، وإن لم يكن ثابتًا أنه شغل آنذاك مناصب سياسية ، وظهر كاتبًا للرسائل منذ عهد عبد الملك المظفر بن أبى عامر ولد المنصور وخليفته ، وتأخذ مكانته فى البروز مع الحكام المتعاقبين حتى زمن الخليفة المستظهر بالله ، ليموت بعد أربع سنوات بعد بيعة هذا عام ٤١٨ هـ = ١٠٢٧ م(٤) فى سرقسطة بعد أن نُيِّف على الثمانين حسب ما حدده ابن بسام(٥) .

أما ابنه محمد بن أحمد بن برد ويكنى أبا العباس ، فإنه لم ينل فى الأغلب حتى من بعيد – لا بمهنته السياسية ، ولا بمواهبه الأدبية – الشهرة التى حظى بها الجد والحفيد ، ونصادف الترجمة الموجزة الوحيدة عنه فى التكملة(٦) ، وأكثر الأخبار أهمية – الموجود فيها – هو قرابته بالكاتبين اللذين يشير إلى مكانتهما ابن الأبار فى عالم السياسة والأدب ، ولم يحدثنا عنه هو : كان شاعرا أو أديبا ، وهل اشترك فى مجال السياسة ، حتى أنه لم يذكر لا سنة مولده ولا وفاته ، إلا أنه ظل على قيد الحياة بعد وفاة ولده سنة ٤٤٥ هـ = ١٠٥٣ – ١٠٥٤ م .

فى البيان لابن عذارى خبر واحد يبدو أنه يشر إليه ، ويجب تصحيحه ، يحدثنا عند الكلام عن يحيى بن على بن حمود أن كاتبه كان أبا العباس أحمد بن برد ، وأنه عيّن

(*) لم ينشر الأستاذ جرانخا هذا المقال حتى الآن . المترجم .

الكاتب محمد بن الفرضى وزيراً[٧] ، من المحتمل أنه حدث لبس فى الكنية ، وأن الأمر يتعلق بأبى حفص الأكبر ، لأن اسم ابنه - كما رأينا - هو محمد وليس أحمد ، ونعلم من مصدر آخر أن ابن برد الأكبر كان كاتبا للحموديين ، ووصلت إلينا كذلك رسالة كتبها هو لعلى بن حمود .

فيما يتعلق بابن برد الأصغر لا ندرى فى أى تاريخ وُلد ، ولا أين ، ربما كان فى قرطبة حيث كانت تعيش أسرته ، وفى نهايات القرن العاشر حسب ما قال هو نفسه فى خبر سوف نراه فيما بعد[٨].

أحمد بن برد الأصغر .

لا ندرى شيئا عن سنواته الأولى التى أمضاها فى قرطبة ، لكننا وقفنا على صداقته بأبى عامر بن شُهيد وأسرته ، الذين كانت تربطهم علائق ذمة ببنى برد عبر أخبار عديدة : أحد هذه الأخبار عند موت صديق لكليهما هو محمد بن ربيب ، وقد كتب ابن برد شعرا يتحدث فيه عن مرضه الأخير بناء على سؤال ابن شهيد ذلك[٩] ، وخبر آخر رواه ابن شهيد نفسه ، يدرجه بين أصدقائه ، بصدد رغبة أبى جعفر بن عباس (وزير زهير المعروف) الذى كان يريد أن يلتقى بابن شهيد[١٠] ، وعندما مات ابن شهيد فى (أول جمعة من جمادى الأولى سنة ٤٢٦ = ١٤ من مارس سنة ١٠٣٥) كان ابن برد أحد الشعراء الذين رثوا هذا الكاتب الكبير[١١] .

وفى عام ٤٢٧ = ١٠٣٥ حرر أبو حفص أحمد بن برد وثيقة مبايعة الخليفة المزيف (بائع الحصر فى قلعة رباح) ، بل إنه كتب أيضًا من تلقاء نفسه دعوة للاحتفال بعودة الخلافة ، وفى هذا الخبر الذى رواه ابن عذارى[١٢] يلقبه بالوزير الكاتب ، وقد رأينا أن لقب الكاتب هو الذى يلقب به ابن برد ليفرق بينه وبين الجد الوزير ، وواضح أن هذا الخبر لا يمكن أن يتعلق بالجد الذى مات من ثمانى سنوات .

ينبغى أن نصحح - قبل أن نمضى قدما - الخطأ الذى اقترفه نيكل Nykl الذى جعل من الجد والحفيد شخصا واحدا ، ويتحدث عن مكانته العظمى لدى العامريين ، عازيا إليه رسالة السيف والقلم[١٣] ، ويعزو بيريس Pérés[*] بدوره إلى الحفيد تحرير

(*) ترجم صديقى الجليل العلامة الدكتور الطاهر مكى كتاب بيريس «الشعر الأندلسى» إلى العربية - المترجم .

بيعة شنجول وليا لعهد الخليفة هشام الثانى[١٤] ، كما ينسب إليه كذلك رسالتين محررتين باسم سليمان المستعين ، على حين أن كاتبهما هو الجد ، بل إن كلتا الرسالتين موجودتان فى الذخيرة بالفصل المعقود عنه[١٥] .

أما أهم الأخبار التى لدينا عن ابن برد الأصغر ، فإنها قد وصلتنا على لسانه هو ، وقفنا على نشأته الأدبية فى كنف جده ، وقد كتب ذلك - مزهوا - فى مقدمة كتابه «سر الأدب وسبك الذهب» وهو لون من التراجم الذاتية حفظ لنا ابن بسام جزءا منه ، ولأهمية هذه المقدمة فى الوقوف على أفكار الكاتب الأدبية ، ولأنها تعكس - على نحو ما - تكوينه النفسى ، فقد ترجمتها ، ونشرتها ملحقا لهذا الفصل .

نعلم أن أبا حفص الأكبر توفى فى سرقسطة ، لعله كان ينقب عن ملاذ يتوقى فيه معاكسات الحظ ، وليس من المعقول أن نعتقد أنه ترك قرطبة باختياره ، وقد شهدت كل حياته ، وكل أمجاده - بآخرة من عمره - ويبدو أن حفيده يوحى لنا بذلك أيضا فى مقطع طويل ، يشكو فيه حظه الأعمى ، حيث أن هوى الكاتب والسياسى فى المصائب قد لحق بكل أفراد الأسرة فيما بعد .

واضح أن هذه السطور لا يمكن أن تكون محررة قبل سنة ١٠٤١ ، التى استقل فيها أبو الأحوص معن بألمرية ، والذى رفع إليه كتابه ، فماذا عن ابن برد منذ وفاة جده ٤١٨ = ١٠٢٧ حتى ذلك الحين ؟ نعثر فى المغرب على الخبر ، فإنه ترك قرطبة إلى ألمرية ، وعينه المعتصم وزيرا ، بعد ذلك ذهب إلى دانية ، إلى بلاط مجاهد[١٦] ، ومع هذا يجب أن نأخذ هذا الخبر بكثير من التحفظ ؛ فإن المعتصم الذى خلف أباه فى سنة ١٠٥١ لم يبدأ يحكم بنفسه حتى موت عمه صمادح أى فى سنة ١٠٥٤[١٧] ، وهو تاريخ تقريبى ، وربما كان بعد موت ابن برد نفسه فى سنة (٤٤٥ = ١٠٥٣ - ١٠٥٤)[١٨] فضلا عن أن مجاهد أمير دانية توفى فى سنة ١٠٤٤ وعلى هذا لابد من تصحيح الخبر الذى جاء فى المغرب ، فإنه من المؤكد أنه عاش فى بلاط واحد منهما ؛ لأن رسالة السيف والقلم رفعها إلى مجاهد ، ورفع «سر الأدب» إلى معن بن صمادح كما ثبت فى المؤلفين كليهما ، بيد أنه من الحتم - كما يقتضى التسلسل التاريخى - أنه كان فى دانية أولا .

لا ندرى فى أى سنة هجر قرطبة ، ربما كان فى التاريخ نفسه الذى هجرها فيه جده ، أى عندما كان صاحبنا حدثا فى ذلك الحين ، ومن المحتمل أن يكون بعد ذلك بقليل حين ذهب إلى بلاط دانية فى حكم مجاهد سنة ١٠٠٩ - ١٠٤٤ ، ثم عاد بعد ذلك إلى قرطبة ، وقد حفظ لنا أبو الوليد الحميرى جزءا من رسالة لابن برد عند قفوله من دانية ، قاصدا الوزير الكاتب أبا إسحق بن حمان الذى خرج معه إلى أرباض قرطبة متنزها[١٩] ، لا ندرى فى أى تاريخ ، وقد رأينا أنه فى العام التالى ٤٢٧ حرر وثيقة البيعة لهشام الثانى المزيف .

نجهل المدة التى مكثها فى قرطبة ، ربما عاصر بنى جهور ، أو كان أيضًا فى خدمتهم بعد أن تمزقت آماله فى عودة الخلافة إلى استقرارها ، وقد كان هو - من المؤكد - شديد التحمس لها ، ومهما يكن من أمر - وإن كنا لا ندرى متى - فقد وجه إلى أبى الوليد محمد بن جهور (ربما قبل أن يصل إلى الحكم سنة ١٠٤٣) رسالته الشهيرة مدافعا فيها عن تفضيل الورد ضد ابن الرومى ، حفظها لنا الحميرى وهو بدوره مناصر لابن الرومى ، وقد كتب ردا يفضل فيه النرجس[٢٠] .

وفى لحظة معينة بعد سنة ١٠٤١ يعلن معن بن صمادح - على أية حال - استقلاله ، فيتوجه الشاعر إلى ألمرية ، وتبقى الفقْر المريرة فى مقدمته لسر الأدب لغزا مبهما إلى حد بعيد ، هل كان الكاتب يتحدث عن موقفه عامة تجاه ذكريات ماضى أسرته المجيد فى قرطبة الخلافة ، أم كان يقصد اللحظة التى كان يكتب فيها ، اللهم إن لم يتعد ذلك أن يكون فكرة مطروقة تستهدف إبراز تعارض خذلانه ، ونقص ولع الجميع بالأدب ، إزاء كرم معن وحبه الشديد للأدب ، ولعله قد أمضى - فى الواقع - فترة ما صعبة حتى حظى برعاية الملك أبى الأحوص معن ، ونعلم أن أبا ابن برد عاش فى ألمرية ، ألم يكن هو - فى نهاية الأمر - الذى استدعاه ليقيم إلى جانبه ؟

إزاء فقْر المراجع الشديد فنحن ندور فى أرض الافتراضات المحضة ، لدينا آخر أنباء عن كاتبنا رواها الحميرى الذى رآه فى ألمرية بعد سنة ٤٤٠ = ١٠٤٨ - ١٠٤٩ ، عند مروره بهذه المدينة فى زيارته لأبى محمد على بن أحمد مؤلف «طوق الحمامة»[٢١] ، وروى أن ابن برد توفى فى ألمرية سنة ٤٤٥ = ١٠٥٣ - ١٠٥٤ فى حياة والده ، وعلى

هذا لابد أن يكون قد مات قبل إتمام العقد الخامس من عمره ، لأنه هو نفسه قال : إنه كان فى سن الصبا الأول حين مات جده سنة ٤١٨ = ١٠٢٧ .

شعر ابن برد الأصغر .

لم تبق لنا نماذج كثيرة من شعر ابن برد ، ولا تتفق والشهرة التى حظى بها شاعرا ، والمقطوعات التى أوردها ابن بسام فى مؤلفه الضخم[٢٢] نقل بعضها عنه غيره فى منتخباتهم الأدبية ، فمؤلف «الذخيرة» لكى يبرز تضلعه هو يروق له أن يُشهِّر بسرقات ابن برد ، وسلخه لأشعار غيره من شعراء الأندلس : أبى العباس أحمد بن القاسم[٢٣] ، وابن هانئ[٢٤] ، وكذلك من المشارقة : أبى نواس[٢٥] ، وابن الرومى[٢٦] ، وابن المعتز[٢٧] ، والمتنبى[٢٨] ، والمعرى[٢٩] .

أما ابن خاقان فقد قرظ مكانته الشعرية مستشهدا ببعض النماذج ، يقول عن شعره : «وشعره مثقف المبانى ، مرهف كالحسام اليمانى»[٣٠] .

ليس بوسعنا الوقوف على المادة التى كانت لدى ابن خاقان حين ألف كتابه «مطمح الأنفس» وهو تكملة – كما هو معروف جيدا – لقلائد العقيان ، لكن فيما يمس ابن برد ، فإنه لا يكاد يستخدم مصدرا آخر غير «جذوة المقتبس» للحميدى ؛ لأن الفقر الأربع القصيرة التى يحتويها موجودة فى «الذخيرة» ، اختار منها الحميدى ثلاثا ، ونسخها عنه الضبى[٣١] ، أما الفقرة الرابعة فهى مأخوذة من الذخيرة ، نقلها حرفيا حتى مع كلمات ابن بسام فى التقديم ، وقد أخذ المقرى فى «نفخ الطيب» الفصل الخاص بابن برد بتمامه عن ابن خاقان[٣٢] .

أما الشعر الذى اختاره ابن سعيد فى المغرب[٣٣] من بيتين أو ثلاثة فهو مأخوذ كله – وباختصار دائما – من الذخيرة[٣٤] ، وثلاث فقرات موجودة فى المغرب نقلها ابن سعيد فى كتابه الآخر «كتاب رايات المبرزين»[٣٥] إحدى هذه الفقر اختارها المؤلف نفسه – فى النهاية – لكتابه الآخر «عنوان المرقصات والمطربات»[٣٦] ، ونقل الشقندى أيضًا فى السياق مقطوعة من بيتين فى مؤلفه «رسالة فى فضل الأندلس»[٣٧] .

نثر ابن برد الأصغر

إذا كان ابن برد شاعرا فليس مكانته ناثرا لدى نقاد الأدب الأندلسيين بأقل ، يراه الحجارى ناثرا أفضل من جده ابن برد الأكبر[٣٨] ، وقد استحق شعره ونثره التقريظ الحار الذى نعته به ابن بسام فى كلمات دقيقة موجزة[٣٩] ، يزهو ابن برد ذاته بمكانته كاتبا عربيًا مجيداً ، يقدر ما له من نتاج أدبى تقديرا كبيرا سواء فى حقل الشعر أو النثر ، ولا يتحفظ فى بسط المسألة[٤٠] وحسب ما صرح به فقد كتب السلطانيات والإخوانيات ، فكتابه «سر الأدب وسبك الذهب» يعتبر – حسب ما بقى منه – منتخبات من نثره : فصول متنوعة شديدة القصر فى التحميدات تشى بموضوع الكتابات ، وتتصدر موضوعاته سياسية وإخوانية .

وله كتابات أخرى وقفنا عليها ، وهى ذات طابع أدبى محض فرسالته التى نشرها الأستاذ بيريس PÉRÉS وحللها وجدت صدى لدى أبى الوليد الحميرى الذى عارضها برسالة أخرى ، وأدرج الرسالتين فى مختاراته البديعة عن الربيع والأزهار[٤١] ، وفى هذه المختارات مقطوعة أخرى لابن برد أشرت إليها آنفا[٤٢] ، فيها وصف جيد لنهر قرطبة وأرباضها جعلت الحميرى يعلق عليها بأنها قطعة نثر مقطعة من السحر .

حاشا هاتين الرسالتين فقد وصل إلينا – للحظ الحسن – ثلاث أخر أولاها بعنوان «الرسالة البديعة فى تفضيل أهب الشاء على ما يفترش من الوطاء»[٤٣] .

أما الأخريان فسوف أترجمهما مدوستين ، وألحقهما بهذا الفصل ، أولاهما بعنوان «رسالة السيف والقلم» ، والأخرى موجهة إلى صديق له ، ولم يصل إلينا عنوان لها .

استرعى نظر النقاد الأندلسيين فحسب رسالته عن السيف والقلم من بين الثلاث الرسائل التى كانت غير منشورة حتى عهد غير بعيد ، وليس فى ذخيرة ابن بسام بالذات أى منها ، لكن أحد النساخ الأذكياء – وشكره واجب – ضمها إلى الذخيرة – عازيا إهمال ابن بسام لها إلى سرعته حين صنف كتابه ، وهذه الرسائل موجودة – فقط – فى مخطوطتين من المخطوطات التى رجع إليها محققو الذخيرة ، لكنهم جعلوها ملحقة بالمجلد الثانى من القسم الأول[٤٤] .

يروى ياقوت[٤٥] وهو الخبر الوحيد الذى لدينا عن هذه النقطة أن ابن برد ألف أيضًا تفسيرًا للقرآن الكريم ، ويذكر كتابين له : كتاب «التحصيل فى تفسير القرآن» ، وكتاب «التفصيل فى تفسير القرآن» ، بيد أنهما فيما يبدو عنوانان لكتاب واحد ؛ نظرا لتشابه العنوانين اللذين وردا عن مصادر مختلفة ، وهذا يفسر اختلاف الروايات ، وغريب – مع ذلك – أن الكتاب الأندلسيين ، وبخاصة أصحاب التراجم الذين قد اهتموا – بلا ريب – بهذا الموضوع قد صمتوا عن ذكر هذا الكتاب ، وعن جهد ابن برد مفسرًا للقرآن[٤٦] .

رسالة السيف والقلم

حسب ما يرويه ابن خاقان[٤٧] فإن ابن برد برسالته هذه كان أول من أوضح الفرق بين السيف والقلم ، وردد المقرى عبارته[٤٨] مستشهدًا فى إسهاب بابن خاقان ، وكررها نيكل عن المقرى[٤٩] ، لكن الإصابة الفاصلة فى ذلك أن العبارة للحميدى – وقد رأينا إلى أى حد أخذ عنه ابن خاقان فى ترجمته لابن برد – وقد رددها الضبى[٥٠] ، بيد أن الحميدى – مع ذلك – كان أكثر احتراسا فى حكمه حيث أشار فقط إلى أن المجادلة بين السيف والقلم فى هذه الرسالة لإحراز الأولوية فحسب كان ابن برد فيها متقدما على كل أدباء الأندلس (وهو أول من سبق إلى القول فى ذلك بالأندلس)[٥١] .

هل عولج هذا الموضوع قبل ذلك فى المشرق ؟ أشار صديقى العزيز المصرى الدكتور محمود على مكى – الذى تفضل بقراءة ترجمتى لهذه الرسالة ، وأوضح لى بعض ما غمض منها – إلى أن هذه الرسالة من المحتمل أن تكون قد استلهمت الأبيات الأولى من قصيدة أبى تمام (بحر البسيط)(*) التى يمدح فيها الخليفة المعتصم بالله بمناسبة فتحه عمورية ، ومستهلها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

ومع ذلك فقد كرر أبو تمام الفكرة فى البيت الثانى لكى يصل فى البيت الثالث إلى تفضيل السيف ، وهذا الاستهلال مستوحى فقط من الواقعة الحربية التى يتغنى بها قبل الولوج إلى موضوعه الرئيسى[٥٢].

(*) وهم الأستاذ جرانخا فى عزوه بيت أبى تمام إلى بحر الطويل ، وعدلناه فى المتن – المترجم .

تتردد فيما بعد فكرة تفضيل السيف على القلم - دون أن يكون لها نتائج ذات شأن - لدى الشاعر العظيم المتنبى فيما يقوله فى ترجمة غرثيه غومث له :

حتى رجعت وأقلامى قوائل لى   المجد للسيف ليس المجد للقلم[٥٣] .

وكما نرى فإن أبيات هذين الشاعرين وشعراء آخرين فى الشعر الأندلسى[٥٤] تأتى عرضا ، دون أن تبلغ إلى أن تشكل موضوعا رئيسيا والشاعر نفسه هو الذى يتحدث متخذا موقفا محددا حين يبدأ نظمه .

أما رسالة ابن برد فإنها تشكل - على العكس - وحدة مرسومة بدقة : مقدمة تسوغ المجادلة القائمة بين القلم والسيف عن فضائل كل منهما ، والحوار المتميز بعدم الاعتدال بين هاتين الآلتين فى مجال الأدب والحرب ، يئولان فى النهاية إلى المصالحة ، كى يصل إلى مدح مجاهد الذى كان ذريعة أنشئت من أجله الرسالة[٥٥] .

تنضوى رسالة السيف والقلم تحت ضرب من الأدب العربى معروف جيدا باسم المفاخرة ، كتبت على طريقة الحوار ، وتشبه أدب المجادلة فى أوروبا فى العصر الوسيط ، ومحاولة إعطاء هذه الرسالة - فضلا عن صعوبة هذا النثر المسجوع - صيغة إسبانية كان عذابا شديدا ، والرسالة كلها وبخاصة مقدمتها عبارة عن سيل عارم من المجازات المتقابلة ، ومترادفات متوالية فى استعارات من الصعوبة بمكان أن تترجم إلى لغة أخرى ، يكثر فيها كما هو طبيعى - الأفكار المطروقة مستعارة من تلك الأفكار المستعملة فى الشعر ، وفيها وصف الشعر مرات متعددة السيف والقلم ، وللأسف فإن موضوعا له مثل هذه الإمكانيات الكثيرة ظل تقريبا موضوعا بيانيا محضا ، ونفتقر فى الرسالة ليس هنا لتأملات سرفنتس الرائعة فى دون كيخوتى الجزء الأول الفصل ٣٧ بل فى إطار موقف من الحياة ، نفتقد كل عظمة الكتاب الإسبان الذين عالجوا الموضوع[٥٦] .

ولكون مجاهد الذى رفعت إليه الرسالة عاهلا كان شغفه بالحرب واضحا عبر ملكه الطويل ، فإن ابن برد - رغما عنه - جعل الميزان بالقسط ؛ فتعليلاته الحارة المليئة بالحدة موزعة بالعدل بين بطلى المجادلة اللذين خلع عليهما الصفات الإنسانية ،

وتنتهي بالسلام ، مؤكدة أن شرط التفضيل بينهما يرتكز على أن الاثنين مفضلان لدى مجاهد ، لكن ابن برد - أديبا بميوله ، ومن سلالة أدباء - وجد من الحتمى أن يميل لتفضيل القلم ، وهكذا نرى أن شعوره بالندم جعله يكتب فى نهاية الأمر - لكى يبرئ ذمته - مدحا للقلم ، طغى فيه الحب كل الحب لصديق صناعته ، الذى لا يفترق عنه ، ويكسر الوضع القائم الذى ترك فيه القلم والسيف ، وعاد - الآن - لا يسمح للسيف أن يرفع عقيرته منافحا عن نفسه ، وآض حانقا عليه ، فلم يخصص له حتى كلمة ود ، رغم أنه نعته - قبل ذلك - بنعوت مدح كثيرة وبعبارات تمجيد هائلة .

هذا التغنى بالقلم موجود فى الذخيرة[٥٧] ، ضمه ابن سعيد بإيجاز - فى المغرب[٥٨] ، ويؤكد ابن سعيد - بالمناسبة - أن الكتاب - الذى يشكل جزءا منه - لابد أنه يقصد سر الأدب - رفعه إلى المعتصم (وليس لمعن)[٥٩] ، وليس ثمة شيء أرق موقعا - ولعله غير صحيح - فى نفس أى ملك من ذلك الدفاع عن القلم ، (خادم الفكر) كما يلقبه ابن برد مثلما هو فى نفس المعتصم ، ملك مسالم ، محب للأدب ، حام له ، إلى أى مدى حددت كلمات ابن برد - ابن برد ذاته الذى كان بجانب الأمير الفتى وأثر فيه - سلوك هذا الملك العالم المتواضع فى إسبانيا الإسلامية ؟

فقَر فى وصف القلم والمداد والكتاب

الكتاب من حلية الملائكة . قال الله تعالى : «كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون»[٦٠] المداد كالبحر والقلم كالغواص ، واللفظ كالجواهر ، والقرطاس كالسلك . الدواة كالقلب ، والقلم كالخاطر ، والصحيفة كاللسان . العقل أب ، والعلم أم ، والفكر ابن ، والقلم خادم ، ما أعجب شأن القلم ، يشرب ظلمة ويلفظ نورا ! قد يكون قلم الكاتب أمضى من سنان المحارب . القلم سهم تنفذ به المقاتل ، وشفرة تطبق بها المفاصل . إذا أخذ الكتاب شكتهم للكلام ، واخترطوا ظبات الأقلام ، فكم من عرش يثل ، ودم يطل ، وجبار يذل ، وجيش يفل ، ولولا القلم ما عبئت كتائب ، ولا سريت مقانب ، ولا انتضيت سيوف ، ولا ازدلفت صفوف . على غيث القلم يتفتح زهر الكلم ، ما أصوغ القلم لحلى الحكم ! قاتل الله القلم ، كيف يفل السنان وهو يكسر بالأسنان ! فساد القلم خدر فى أعضاء الخط . [قال ابن بسام : وهذا محلول من قول القائل حيث يقول :

من خط يوما ببرية فسدت   أصاب أعضاء خطه خدر

ما كُتِب على غرار رسالة السيف والقلم

لم يشر أحد من أدباء الأندلس الذين تناولوا هذه الرسالة أية إشارة إلى الرسائل التى من المحتمل أن تكون قد احتذت تلك الرسالة ، ما مدى الشهرة التى بلغتها رسالة ابن برد ؟

لا يبدو أنه حفظت منها نسخ كثيرة حاشا نسخة الذخيرة ، وقد قلنا آنفا إنها لم تكن موجودة فيما حرره ابن بسام ، ربما تكون موجودة فى مخطوطة أخرى فى اسطمبول(٦١) ، لكننى أعتقد – فى وضوح – أنها حظيت بشهرة داخل الأدب العربى ، وربما خارجه .

وبما أن الموضوع يعنيني – وأفكر فى العودة إليه – فإننى أشير فحسب إلى بعض الكتاب – لكن هناك غيرهم – الذين أثرت فى مصنفاتهم رسالة السيف والقلم .

أول هؤلاء شاعر بلنسى معروف هو محمد بن غالب الرصافى (توفى ١٩ من رمضان سنة ٥٧٢ = ٢١ من مارس سنة ١١٧٧) كتب مقامة نقل إلينا ابن الخطيب فقرة منها فى وصف القلم ، تناولتها بالدراسة فى فصل آخر من هذا الكتاب(٦٢) ، وبما أن المقامة لم تصلنا كاملة فإننا لا نسمح لأنفسنا بالمغامرة فى الحكم على علاقتها برسالة ابن برد ، لكنى أستطيع أن أؤكد – على الأقل التبعية التى لا ريب فيها فى مدح القلم للكاتب نفسه والذى ترجمته سابقا .

ثانى هؤلاء هو المصرى ابن نباتة (٦٨٧ – ٧١٦ = ١٢٨٧ – ١٣١٦) مؤلف (مغايرة بين السيف والقلم) توجد منها بعض مخطوطات ، ونشرت فى المشرق ضمن مؤلفات قصيرة أخرى تنضوى تحت نوع المناظرات(٦٣) وقد استطعت – فى النهاية – أن أحصل على رسالة ابن نباتة هذه ، لكن قراءة عاجلة لها كانت حسبى لأقف على علاقتها الوثقى برسالة السيف والقلم لابن برد التى أخذ ابن نباتة حتى عنوانها .

ثالث هؤلاء هو أحد أدباء اليهود الإسبان المعروفين أقصد الحريزى (١١٦٥ - ١٢٢٥) المعروف بكتابه سفر تحكيمونى :Séfer Tahkemoni ، وقد عرف أيضًا - فيما يبدو - رسالة ابن برد ، ففى المقامة رقم ٤٠ من تحكيمونى استقبل هيمان خزرجى فى إحدى الأمسيات التى أتهكه فيها الألم صديقه العالم حبير هاكينى الذى - بعد الطعام وحمد الله - لام مضيفه لرميه قلمين تحطما عندما تهيأ لنسخ خطبته الرائعة ، وفى الحال جلس يكتب مدحا للقلم ، راويا حكاية ملك قديم ومحاورته مع وزرائه وقادته ، بعضهم ينافح عن القلم ، وآخرون يفضلون السيف ، وبالتالى تعاور القلم والسيف الحوار ، حتى ختمه القلم فى النهاية فى هذه المقامة أيضًا .

لم تسمح لى - للأسف - معرفتى باللغة العبرية بقراءة النص فى لغته الأصلية وهى شديدة الصعوبة ، لكنى استطعت من خلال ترجمتين لها إلى الألمانية إحداهما لكرافت[٦٤] Krafft فى نثر مسجوع ، وفى شعر لكى يحافظ على بناء المقامة ، وثانيتهما لدوكس Dukes[٦٥] - وكلها فى النثر - استطعت أن أرى فضلا عن أن الهيكل مختلف - فى صلبهما - أن التعليلات المتناجزة فى وصف السيف والقلم سلبا وإيجابا تقفو من قريب طريقة ابن برد ، ومعروف جيدا أن معرفة الحريزى بلغة العرب وآدابهم معرفة ضخمة خولت له أن يترجم إلى العبرية أحد المصنفات الشديدة العسر وهى مقامات الحريرى .

فى سنة ١٩٥٢ نشر الأستاذ شيرمان : Schirmann مقالا موجزا بالعبرية عن مصادر تحكيمونى للحريزى ، ولم يشر فيه إلى الموضوع الذى يعنينا[٦٦] ، وبعد عشر سنوات حينما ظهرت الصفحات السابقة نشرت دراسة هامة حول Les Contes Rime's ليعقوب بن اليعازر الطليطلى[٦٧] وهو كاتب إسبانى يهودى فى القرن الثالث عشر مشفوعة بالتحليل ، إحدى هذه Mešálím الرابعة فى المجموعة موضوع عن القلم والسيف ، دخل صاحباهما فى مناقشة حول تفضيل أحدهما على الآخر ، وأسبقيته كى يصل فى النهاية ، ويعترف صاحب السيف بأن كليهما تابعان لله ، وإن كان الموجز الذى قدمه شيرمان يحتوى فقط على سطور قليلة[٦٨] ، فإن هذه الرواية تبدو صدى لرسالة ابن برد مع ختامها بحل إلهى ، وبعد ذلك يشير شيرمان إلى أن المجادلة بين السيف والقلم موضوع يبدو له - بكل تأكيد - أنه ذو أصل عربى ، وكذلك الإطار ، وهو

يشير إشارة سريعة فى هامش الفصل ٤٠ من تحكيمونى إلى أبراهام بيدريس Abraham Bedersí محيلا إلى دراسته المعروفة عن الشعر العبرى فى إسبانيا وبروفانس[٦٩] .

وقد نشر مؤخرا صديقى العزيز فرناندو دياث استيبان دراسة هامة عالج فيها مناظرة القلم والمقص للكاتب المشهور سيم توب دى كاريّون Sem Tob De Carrion ، وهى عبارة عن دراسة مكثفة وعامة تأخذ فى الحسبان إلى حد كبير صفحاتى هذه فى الجزء العبرى ، حيث ترجم – ليس فحسب مناظرة سيم توب – بل أيضًا المقامة رقم ٤٠ من تحكيمونى التى أوجزتها سابقا ، وهى دراسة أحيل إليها القارئ الذى تهمه القضية[٧٠] .

رسالة النخلة

النخلة هى أحد الموضوعات القديمة إلى جانب الناقة والطلول الدوارس فى الأدب الجاهلى ، وعندما انتقلت الثقافة العربية من الصحراء إلى الحاضرة انتقلت معها الموضوعات التقليدية فى الشعر الجاهلى ، وليس لهذا علة – فى البداية – سوى الحنين ، وسطوة التقاليد الراسخة فى مجمل الأمر .

لا نعرف العنوان الأصلى لهذه الرسالة (النخلة) الذى سماها به ناشرو الذخيرة ، وهى رسالة مناسبات تدخل فى إطار الكتابات الصغيرة ذات الطابع المهرجانى فى الأدب العربى ، والتى نحتفظ منها بمجموعة كبيرة من تصنيفات أدباء الأندلس ، هى عبارة عن رسالة من ابن برد إلى صديقه أبى عبد الله ، يلومه فيها على أنانيته ويخله ؛ لأنه لم يدعه إلى الأكل من جنى نخلته .

يبسط الكاتب القول فى هذا الموضوع الذى ليس سوى تعلّة للكتابة – المأساة الضخمة فى الأدب العربى الكلاسيكى اللغة الجميلة ، وفقر المضمون باستثناء كبار الأدباء – مستعرضا قدرته ، وتضلعه فى رشاقة نثره المسجوع .

رسالة كهذه حين تُعرّى من ثوبها الأصلى ، وينقلها إلى لغة أخرى غير حاذق لا تكاد تبدو – كما يقول العرب – إلا كلاما فارغا لدى غير المستعربين ، هل فى وسع

حزن الكاتب أن يسوغ كل هذه الصفحات لكونه لم يذق جنى النخلة [غريبة عن وطننا] . يقول هذا ليناقض نفسه - فيما بعد - حينما يتحدث عن «التمر» المعروض للبيع فى الأسواق !

ليس مسوغا بمنتهى الوضوح ، وحتى من المحتمل أن تكون هذه التعلة الواهية هى فحسب مجرد اختراع ، فإنه يتأتى معها أن تكون مبالغة ممقوتة ، لكن ابن برد - مثله فى ذلك مثل أغلبية الكتاب العرب فى كل العصور - كان يشعر بالحاجة إلى الكتابة ليفرغ على الورق العبارات البديعة ، والكلمات المهجورة ، والاستعارات المجنحة ، والتعبيرات الذكية ، هذا هو المسوغ الأكبر .

سوف يكتب أيضًا - فيما بعد - عن نخلة غرناطية أديب أندلسى هو أبو الحسن الجذامى النباهى [مات فى نهاية القرن الرابع عشر] مقامة وصلت إلينا بعنوان "المقامة النخلية " وأتبعها المؤلف بتعليق مسهب[٧١] .

عن النخلة فى الأندلس كتب منذ سنوات الأستاذ هنرى بيريس دراسة جيدة جمع فيها كل النصوص الأدبية والجغرافية التى استطاع الوقوف عليها[٧٢] ، وعليه وفقا لمعلوماته الواسعة بالأدب العربى أن يضم إليها رسالة ابن برد هذه التى كانت مخطوطة حينذاك على هذه الدراسة أحيل القارئ ؛ كيلا أبسط القول فى موضوع طرقه العلامة المستشرق الفرنسى بأستاذية معهودة فيه .

(*) [ ] ما بين معقوفتين ليس فى الترجمة الإسبانية وقد رأينا نقله - المترجم .

هوامش

(١) انظر الذخيرة ١/٢ ص ١٨ – ٥٢ .

(٢) مطمح الأنفس ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٣) المغرب جـ ١ ص ٨٦ – ٩١ .

(٤) ابن بشكوال – الصلة . ص ٤٠ .

(٥) الذخيرة ١/١ ص ٨٤ .

(٦) ابن الأبار – التكملة حـ ١ ص ١٢٤ . ترجمة رقم ٤٣٥ . خبر مأخوذ بعضه عن ابن حيان . وهذه الترجمة أخذها ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة جـ ٥ ص ٥٩٣ ترجمة رقم ١١٧١ .

(٧) البيان المغرب جـ ٣ ص ١٣٢ .

(٨) الذخيرة ١/١ ص ٩٧ وما بعدها .

(٩) الذخيرة ١/٢ ص ٥١ .

(١٠) الذخيرة ١/١ ص ٥٦١ ، وفى نفح الطيب مع بعض اختلاف جـ ٢ ص ٤١٣ ، وحلل النص هنرى بيريس فى كتابه عن الشعر الأندلسى ص ٨٦ ، ويبدو لى غير مرضٍ .

(١١) المغرب جـ ١ ـ ص ٨٥ .

(١٢) البيان المغرب جـ ٣ ص ١٩٠ .

(١٣) أ – ر . نيكل . الشعر الأندلسى . ص ١٢١ – ١٢٢ .. A. R. Nykl, Hispano - Arabic Poetry. pp. 121 - 122.

(١٤) هنرى بيريس . الشعر . ص ٤ ، وهامش ١ . وراجع الذخيرة ١/١ ص ٨٤ ، ٨٦ . وانظر ليفى بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية .المجلد الرابع من تاريخ إسبانيا بإشراف ر . مينندث بيدال ، مدريد ١٩٥٩) ص ٤٥٦ ، ٤٨٨ . هامش ٣ .

(١٥) هنرى بيريس ص ٩٤ ، وقارنه بالذخيرة ١/١ ص ٩٤ .

(١٦) المغرب جـ ١ ص ٩١ .

(١٧) ر . دوزى . بحوث ط٣ : Recherches[3] . جـ ١ ص ٢٤٢ .

(١٨) هذا التاريخ يشير - كما قلنا - إلى ترجمة أبيه فى التكملة لابن الأبار . رقم ٤٣٥ .

(١٩) راجع . أبو الوليد الحميرى . البديع فى وصف الربيع . المنشور بعناية هنرى بيريس - الرباط عام ١٩٤٠ ص ٢٢ .

(٢٠) المرجع السابق ، ص ٥٢ - ٥٨ . ورد أبى الوليد فى ص ٥٨ - ٦٧ ، وانظر أيضًا حول هذا الموضوع المشهور . بيريس عن الشعر الأندلسى ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٢١) قارن . الحميدى . الجذوة ص ١٠٧ ، ونقله الضبى فى البغية ص ١٥٣ ، ويسميه - فى الواقع - أبا محمد بن حزم .

(٢٢) الذخيرة ١/٢ ص ٣٧ - ٥٢ .

(٢٣) الذخيرة ١/٢ ص ٣٨ .

(٢٤) الذخيرة ١/٢ ص ٣٩ .

(٢٥) الذخيرة ١/٢ ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢٦) الذخيرة ١/٢ ص ٣٩ - ٥٠ .

(٢٧) الذخيرة ١/٢ ص ٥٠ .

(٢٨) الذخيرة ١/٢ ص ٤١ .

(٢٩) الذخيرة ١/٢ ص ٥٠ .

(٣٠) مطمح الأنفس ص ٢٤ .

(٣١) راجع المطمح ص ٢٤ ، ٢٥ ، والجذوة ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، والبغية ص ١٥٣ ، ١٥٤ والذخيرة ١/٢ ص ٣٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ .

(٣٢) نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٣٣) المغرب جـ ١ ص ٩٠ ، ٩١ .

(٣٤) راجع الذخيرة ١/٢ ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ .

(٣٥) النص العربى ص ٤١ ، وترجمته الإسبانية ص ١٨٠ .

(٣٦) عنوان المرقصات والمطربات . طبعة وترجمة عبد القادر مهداد - الجزائر عام ١٩٤٩ ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٣٧) نفح الطيب جـ ٢ ص ١٣٣ ، وراجع فضل الإسلام الإسبانى . ترجمة إميليو غرثيه غومث . مدريد ، غرناطة عام ١٩٢٤ ص ٦٥ .

(٣٨) المغرب جـ ١ ص ٩١ .

(٣٩) قارنه بما يأتى ص ٥٤ .

(٤٠) انظر خاصة الملحق ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٤١) انظر ما سبق ص ١١ .

(٤٢) انظر ما سبق ص ١٠ ، ١١ .

(٤٣) راجع الذخيرة ١/٢ ص ٥٢ هامش ١ .

(٤٤) الذخيرة ١/٢ ص ٤٣٥ – ٤٤١ .

(٤٥) معجم الأدباء جـ ٥ ص ٤١ – ٤٣ .

(٤٦) ينبغى أن يضاف إلى المصادر المدروسة تلك المصادر التى ذكرها هنرى بيريس فى «الشعر فى فاس على عهد المرابطين والموحدين» فى مجلة هسبريس عدد ١٧ عام ١٩٣٤ هامش ١ ص ١٥ . ولم تقل تلك المصادر شيئا جديداً . لم أستطع استشارة المخطوطات ولا كتاب أحمد ضيف "بلاغة العرب فى الأندلس" . القاهرة عام ١٣٤٢ هـ .

(٤٧) مطمح الأنفس ص ٢٤ .

(٤٨) نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٦٧ .

(49) Hispono - Arabic Poetry. p 122.

(٥٠) البغية ص ١٥٣ .

(٥١) الجذوة ص ١٠٧ .

(٥٢) ديوان أبى تمام بشرح التبريزى . تحقيق محمد عبده عزام . القاهرة سنة ١٩٥١ . جـ ١ ص ٤٥ . وعن عمورية المعروفة قديما باسم .Amorium راجع دائرة المعارف الإسلامية ط – ٢ جـ ١ ص ٤٦٢ . مقال (م . كانارد) .

(٥٣) إميليو غرثيه غومث . خمسة شعراء مسلمون ص ٥٧ ، وراجع ص ٤٧ ، ٤٩ التى يشير فيها الكاتب إلى ازدواجية السيف والقلم فى شعر المتنبى . (ترجم هذا الكتاب ترجمة جيدة إلى العربية صديقى العلامة الدكتور الطاهر مكى – المترجم) .

(٥٤) انظر عن هذه القضية : الشعر الأندلسى لإميليو غرثيه غومث . حول خسوف الشعر فى إشبيليه على عهد المرابطين فى مجلة الأندلس عدد ١٠ سنة ١٩٤٥ ص ٣١٨ حيث يشير إلى ابن برد ، وكذلك هنرى بيريس فى كتابه الشعر الأندلسى ص ٤٣٦ ، ٤٣٨ .

(٥٥) لم تنته رسالة ابن برد بانتصار القلم كما يقول بيريس فى «الشعر فى فاس ... ص ١٥) المذكور سابقا فى هامش ٤٦ .

(٥٦) لم ينته الموضوع . لكن من المفيد – من حيث البداية – الرجوع إلى مقال غونثالو مينندث بيدال «الأسلحة والآداب» فى مجلة الاسكوريال عدد ٤٢ سنة ١٩٤٤ ص ٢٢٧ ، ٢٤٤ .

(٥٧) الذخيرة ٢/١ ص ٢٨ .

(٥٨) المغرب جـ ١ ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٥٩) المرجع السابق جـ ١ ص ٨٦ .

(٦٠) القرآن الكريم سورة الانفطار . آية ١١ ، ١٢ .

(٦١) من بين عناوين المؤلفات التى أجهل مسقط رأس كتابها والعصر الذى عاشوا فيه . والذين يوجدون فى ملحق G.A.L ، يذكر بروكلمان مفاخرات السيف والقلم لمحمد بن أحمد الكاتبى الأندلسى (قارن ملحق جـ ٢ ص ٩١٠ رقم ٥٣ والتى ينبغى بلا ريب أن تكون الرسالة التى نتحدث عنها والتى اعتور عنوانها وبخاصة اسم كاتبها التغيرات الشرقية المعروفة ويجب أن نتعود عليها حينما يتعلق الأمر بمؤلفات ، وكتاب أندلسيين .

(٦٢) سيأتى فى الفصل الخامس ص ١٣١ – ١٣٧ .

(٦٣) مناظرات فى الأدب . طبعة عزت العطار – القاهرة ١٩٣٢ ، وما كتبه ابن نباتة يستغرق من ص ٥ – ١٩ .

(64) Viezigste Mekame. Schwert Und Feder Sindim Steite, - Wer Den Grössten Nutzen Bereit, En Literaturblatt Des Orients, 1840, Heft 13, pp.196 - 198., Heft 14, pp 213 - 215 .

(65) Feder Und Schwert Streiten, Wer Denmenschen Und Ibren Kriegen Mehr Bedürfniss Ist, En Leopold Dukes, Ehrensäulen Und Denksteine Zu Einem Künftigen Pantheon Hebräis Cher Dichter Und Dichtungen, Wien 1873, pp 92 - 94 .

وأشكر الآنسة اورسولا جارتنير اهتمامها وعنايتها الكبيرة أن أمدتنا بصورة من هاتين الترجمتين .

(66) H. Schirman, L - Heqer Mqorotau Šel Sefer Ga - Tahkmonll - Yhada Al - Hartzt, En Tarbiz, 23, 3 - 4 (1952) pp 198 - 202 .

كل هذه الفقرة حتى الاستشهاد الذى يليها أضفته إلى هذه الصفحات التى كانت قد ظهرت من قبل فى سنة ١٩٦٠ .

(67) En Études D'orientalisme Sédiees Àla Mémoire De Lévi - Proven çal, Paris 1962, 11 , 285 - 297 .

(٦٨) المرجع السابق ص ٢٨٨ .

(٦٩) المرجع السابق ص ٢٩٣ وهامش ١٢ ، وعن ابراهام بيرس (القرن : ١٣) وعلاقته بالموضوع انظر المؤلف الذى أذكره فى الهامش التالى ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٧٠) دياث استيبان «مناظرة القلم والمقص» لسيم توب أردوتيل ، ودون سانتو دى كاريون . فى مجلة جامعة مدريد . مجلد ١٨ . عدد ٦٩ (١٩٦٩) ص ٦١ - ١٠٢ .

(٧١) عنوان الكتاب . مقامة وتعليق هو : كتاب البصائر والأبصار محفوظ فى مخطوطين فى مكتبة الاسكوريال ، ولدىّ مقامة البنا هى مترجمة ونشرها ماركوس جوزيف مولر

Beiträge Zur Geschichte Araber, München 1866, pp. 139 - 159 .

لكنى تركتها دون نشر ، لأن الدكتور مكى أخبرنى أن لديه مخطوطا آخر مغربيا ويفكر فى نشر طبعة جديدة وكاملة له .

(٧٢) هنرى بيريس . النخلة فى إسبانيا الإسلامية

Notes D´aprés Les Textes Arabes, En Mélanges Gaudefroy - Demombyens, Cairo, 1935 - 1945. pp. 225 - 239 .

رسالة السيف والقلم

رسالة فى السيف والقلم وكتبها إلى الموفق أبى الجيش مجاهد

يقول فيها : أما بعد حمْد الله بجميع محامده وآلائه ، والصلاة على خاتم أنبيائه ، فإن التسابق من جوادين سبقا فى حلبة ، وقضيبين نسقا فى تربة ، والتحاسد من نجمين أنارا فى أفق ، وسهمين صارا على نسق ، والتفاخر من زهرتين تفتحتا من كمامة ، وبارقتين توضحتا من غمامة ، لأحمد وجوه الحسد ، وإن كان مذموما مع الأبد ، وربما امتد أحد الجوادين بخطوة ، أو خُصَّ أحد القضيبين بربوة ، أو كان أحد السهمين أنفذ مصيرا ، أو راح أحد النجمين أضوأ تنويرا ، أو غدت إحدى الزهرتين أندى غضارة ، أو أمست إحدى البارقتين أسنى إنارة ، فالمقصر يرتقب تقدما ، وتقارب الحالتين فى المجانسة ، يشب نار المنافسة ، وإن حال بينهما قدح النقاد ، وقبح تحاسد الأضداد .

وإن السيف والقلم لما كانا مصباحين يهديان إلى القصد ، من بات يسرى إلى المجد ، وسلمين يلحقان بالكواكب ، من ارتقى لساميات المراتب ، وطريقين يشرعان نهج الشرف لم تقر إليه ، ويجمعان شمل الفخر لم تأشب عليه ، ووسيلتين يرشفان العلى فم عاشقها ، ويبسطان فى وصال المنى يدا وامقها ، وشفيعين لا يؤخر تشفيعهما ، ومجمعين لا يفرق تجميعهما ، جرًّا أذيال الخيلاء تفاخرا ، وأشما بأنف الكبرياء تنافرا ، وادعى كل واحد منهما أن الفوز لقدحه ، وأن الورى لقدحه ، وأن الدر من أصدافه ، وأن البكر من زفافه ، وأن البناء من تشييده ، وأن الملاء من تعضيده ، وأن كباء الثناء موقوف على مجامره ، وأن خطيب الفخر محبوس على منابره ، وأن حلل المآثر من نسيجه ، وأن أفراد المفاخر من تزويجه ، وحين كشف الجدال قناعه ، ومد الخصام ذراعه ، وهز الإباء من عطفه ، وأشم الأنف من أنفه ، قاما يتباريان فى المقام ، ويتساجلان فى الخصال ، ويصف كل واحد منهما جلال نفسه ، ويذكر فضل ما اجتنى من غرسه ، ويبأى بمنقبة نافرت السها ، ومرتبة ريض خيسها ، ورياسة من ذوائب الجوزاء صادها ، ونباهة فى صهوة العيوق أفادها .

فقال القلم : ها ! الله أكبر ! أيها المسائل بدءا يعقل لسانك ويحير جنانك وبديهة تملأ سمعك ، وتضيق ذرعك ، خير الأقوال الحق ، وأحمد السجايا الصدق ، والأفضل من فضل الله عز وجل فى تنزيله ، مقسما به لرسوله ، فقال ، : «ن . والقلم وما يسطرون» ، وقال : « اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم » فجل من مقسم ، وعز من قسم ! فما ترانى وقد حللت بين جفن الإيمان وناظره ، وجلت بين قلب الإنسان وخاطره ؟ لقد أخذت الفضل برمته ، وقدت الفخر بأزمته .

فقال السيف : عدنا من ذكر الشريعة إلى ذكر الطبيعة ، ومن وصف الملة إلى وصف الخصلة ، لا أسر ولكن أعلن ، قيمة كل امرئ ما يحسن ، إن عاتقا حمل نجادى لسعيد ، وإن عضدا بات وسادى لسديد ، وإن فتى اتخذنى دليله لمهدى ، وإن أمرأ صيرنى رسيله لمفدى ، يشق منى الدجى بمصباح ، ويقابل كل باب بمفتاح ، وأفصح والبطل قد خرس ، وأبتسم والأجل قد عبس ، أقضى فلا أنصف ، وأمضى فلا أصرف ، أزرى بالوفاء ، وأهتك اللأمة هتك الرداء .

فقال القلم : نعوذ بالله من الحور بعد الكور ، وقبحا للتحلى بالجور ! و[بياض بالأصل] تسود ما بيض الصفاء ، وتكور ما أخلص الإخاء ، وتؤكد أسباب الفتن ، الحق أبلج ، والباطل لجلج إن ... [بياض بالأصل] فإن فى قدحها المأمونة الطائر ، محمودة الباطن والظاهر ، أحكم فأعدل ، وأشهد فأقبل ، وترحل عزماتى شرقا وغربا ولا أرحل ، أعد فأفى ، وأستكفى فأكفى ، أحلب الغنى من ضروعه ، وأجتنى الندى من فروعه ، وهل أنا إلا قطب تدور عليه الدول ، وجواد شأوه يدرك الأمل ، شفيع كل ملك إلى مطالبه ، ووسيلته إلى مكاسبه ، وشاهد نجواه قبل كل شاهد ، ووارد معناه قبل كل وارد .

فقال السيف : يالله ! استنت النصال حتى القرعى ! ورب صلف تحت الراعدة ! لقد تحاول امتدادا بباع قصيرة ، وانتفاضا بجناح كسيرة ، أمستعرب والفلس ثمنك ، ومستجلب وكل بقعة وطنك ؟ جسم ودمع بار تحفى فتنتعل بريا ، حتى يعود جسمك فيئا ، إن الملوك لتبادر إلى دركى ولتتحاسد فى ملكى ، ولتتوارثنى على النسب ، ولتغالى فىّ على الحسب ، فتكللنى المرجان وتنعلنى القيان ، وتلحقنى بخلل كحلل ، وحمائل كخمائل ، حتى أبرز براز الهندى يوم الجلاء والروض غب السماء .

فقال القلم : من ساء سمعا ساء إجابة . أستعيذ بالله من خطل أرعيت فيه سوامك ، وزلل افتتحت به كلامك ! إن ازدراءك بتمكن وجدانى ، ويخس أثمانى ، لنقصٌ فى طباعك ، وقِصَر فى باعك ، ألا وإن الذهب معدنه فى العفر ، وهو أنفس الجواهر ، والنار مكمنها فى الحجر وهى إحدى العناصر ، وإن الماء وهو الحياة أكثر المعايش وجدانا ، وأقلها أثمانا ، وقلما تلفى الأعلاق النفيسة ، إلا فى الأمكنة الخسيسة ، وأما التعرى ، فغنينا بالجمال عن جر الأذيال ، وهل يصلح الدر حتى يطرح صدفه ، أو يبتهج الإغريض حتى يشذب سعفه ، أم يتلألأ الصبح حتى تتجلى سدفه ؟ إن الضحا للرجال معروف ، وإن الخفر على النساء موقوف ، ولولا جلاء الصياقل صدأك لأسرعت ذهابا ، وعدت مع التراب ترابا .

فقال السيف : جعجعة رحى لا يتبعها طحن ، وجلجلة رعد لا يليها مزن ، فى وجه مالك تعرف أمرته ، وجه لئيم ، وجسم سقيم ، وغرب يفل ، ودم يطل ، ودموع سجام ، كأنهن سخام ، ورأس لم يتقلقل فيه لب ، وجوف لم يتخضخض فيه قلب ، أوحش من جوف العير يشهد عليه الجور بقلة الخير ، فهب من نومك ، وأفطر من صومك ، وتحكم بطرف نظار ، فى جسم ماء وحلة نار ، إن انتضانى جاهل ، أوهمته أنى سائل ، ففر خوفا أن يغرق ، وولى حذرا أن يحترق ، فى بحر زبده الشعل ، وبرق سحابه الخلل ، لو انتضيت والشمس كاسفة لم ينظر وقت تجليها ، أو السنون مجدبة أيقن بالحيا راعيها ، قد خط الفرند فى صفحتى أمثال صغار الخيلان ، فى البيض من صفحات الحسان ، أكرع يوم الوغى فى لبة البطل ، فأعود كالخد كُسِى صبغ الخجل ، كأنما اشتملت بالشفيق ، أو شربت ماء العقيق .

فقال القلم : إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا ، ما كل بيضاء شحمة ، ولا كل سوداء تمرة ! إن ماءك السائل لجامد ، وإن جرمك الملتهب لبارد ، ولن يغرق فيه حتى تكرع فى السباسب العطاش ، ولن يحترق به حتى يقع فى نار الحباحب الفراش ، يسفر البلاء لك عن قضيب عاج ولسان سراج ، وقدح ورق جلل بالعقيان ، وحلة نرجس فوق جسم أقحوان ، الليل فى فوديه لطخ ، وللمسك فى صدغيه نضخ ، أنجلى عن المهارق ، انجلاء الغمام عن الحدائق ، وأرقم فى بطون الصحف ، ما لا يرقم الربيع فى الروضة الأنف ، من منمنم يختال بين مسهم ، ومعضد فوق مسرد .

ولما كثر تعارضهما ، وطال تراوضهما ، وقابل كل واحد منهما بجمعه جمعا ، وقرع بنبعه نبعا ، ولم ينثن أحد الصارمين كهاما ، ولم يرتد أحد العارضين جهاما ، تبادر إلى السلم يعقدان لواءها ، وإلى المؤالفة يردان ماءها ، وقالا : إن من القبيح أن تتشتت أهواؤنا ، وتتفرق آراؤنا ، وقد جمعنا الله في المألف الكريم ، وأحلنا بمحل غير ذميم ، بأعلى يد نالت آمالها ، ووافت المطالب في أوطانها ، ولم تقابل بابا مغلقا إلا قرعته ، ولا حجابا مضلعا إلا رفعته ، ولا جدا عاثرا إلا أقالته ، ولا أملا غائرا إلا أسالته ، تلك يد الموفق أبي الجيش مولى المعالي ومسترقها ، ومستوجب المكارم ومستحقها ، العاقد لواء المجد بذوائب السماك ، والمطل بفخره على الأفلاك ، والمقدم إذا أحجمت الأبطال ، والضاحك إذا بكت الآجال ، والساري إلى العلياء إذا أدلج الكرام ، والمسهد في الآراء إذا هجد الأنام ، والطالب ثأر العديم بجوده ، والمشفع النبيل بمزيده ، والمسعف لمعاده ، والمخلف لإبعاده ، والمجري في ذاويات الهم ماء ، والمطلع في ظلمات الآمال سناء ، فإذ قد عدل بيننا بحكمه ، يوم وغاه ويوم سلمه ، فجاوز بك حد المسالمة ، وجاوز بي حد المشارسة ، ولم يثنك حتى بلغ مناه ، ولم يثنني حتى وافق هواه ، ولم يقصر بي عن غاية بلغك إليها ، ولم يقدمك إلى مرتبة أخرني عنها ، فأجمل رداء نرتديه ، وأفضل حذاء نحتذيه ، وأهدى سبيل نقصده ، وأصفى منهل نرده ، مؤالفة نجرر ذيلها ، ونميل ميلها ، ومعاشرة نتجاني ثمارها ، ونتعاطى عقارها ، وذنوب نخلي أوطانها ، ونهدم بنيانها ، ودمن نعفي دمنها ، ونرد في أجفانها وسنها .

ثم قال القلم : إن مما نبرم به عقدنا وننظم عقدنا ، ويستظهر به بعضنا على بعض ، إن حالت حال ، وكان للدهر انتقال ، أن نخط كتابا مصيبا ، يكون لنا منابا وعلينا رقيبا ، فقد يدب الدهر بعقاربه ، بين المرء وأقاربه ، ويسعى بالنميمة ، بين الفرعين في الأورمة .

فقال السيف : أنت والبيان ، وحربا والميدان ، فقال القلم : إن النثر في ذلك مثل يسير ، وإن الشعر في ذلك خطير ، وإنه لشدو الحادي ، وزاد الرائح والغادي ، واختاره على النثر تنويها بالذكر ، فقال :

قد آن للسيف ألا يفضل القلما	مذ سخرا لفتى حاز العلى بهما
إن يجتني المجد غضا من كمائمه	فإنما يجتني من بعض غرسهما

مـا جـاريا أمـلا أو وافـيـا أمـدا   إلا وكـانت خـصال السـبق بينهـمـا
سـقاهمـا الدهر من تشتيتـه جرعـا   ولليـالى صـروف تـقطع الرحـمـا
حتى إذا نـام طرف الجهل وانتـبهت   عين النهى قـرعـا سنيـهـمـا ندمـا
راحا بكف أبى الجيش التى خلقت   غـمـامـة كل حين تمطر الـنعـمـا
فـعـاد حـبلهـمـا المنبت منعـقـدا   وراح شـملهـمـا المنفض ملتـئـمـا
يا أيهـا الملك الـسـامـى بهـمـتـه   إلى سـماء عـلا قد أعـيت الهـمـمـا
لولا طلابى غـريب المدح فـيك لما   وصفت قـبل علاك السـيف والقلما
وإنما كـان تعـريضـا كـشـفت به   من البـلاغـة وجـهـا كـان ملتـثـمـا .

رسالته فى النخلة

أمـا بعـد : جـعلك الله من المؤثرين على أنفسـهم ، والموقـين شـحـهـا ، والمنجـزين لمواعيدهـم والمعطين صدقها ، فقد علمت ما سلف لنا فى العام الفارط من عتابك ولبسنا شكته من مـلامك ، لما كتمتنا صرام النخلة التى هى بأرضنا إحدى الغرائب ، وفـريدة العـجائب ، هربا من أن نلزمك الإسهام فى رطبها ، وحرصا على تمام لذة الاستبداد بها ، وقلت ، وقد سـألناك من جناها قليلا ، ورجونا أن تنيلنا منها ولو فتيلا : « لوعلمت أن لكم به هذا الكلف ، وإليه هذا النزاع ، لأمسكته عليكم ، وجعلت حكم جذاذه إليكم ، ولكنها إن شاء الله فى العام الآنف غلتكم ، عتاد نفيس لكم ، وذخر حبيس عليكم » .

فـأمـا نحن فرسمنا تلك العدة فى سويدات قلوبنا ، ووكلنا بها حفظة خواطرنا ، وأما أنت فـهلت عليـها التراب ، وأسلمتـها إلى يد البلى حتى إذا أخذت الأرض زخـرفـها ، وازينت زينتـها ، وبلغت غايتـها ، وأشبع القمر صبغـها ، وأحكمت الشمس نضـجها ، دببت إليها الضراء بصرامك ، ومشيت نحوها الخمر بحرابك ، على حين نام السـمار ، وغـفلت الجارة والجـار ، وأبت بهـا إيابة الأسـد بفريسـتـه ، وتحكمت فـيهـا تحكمـه فى عنيـزته ، ولما رأينا على ذلك طلائع الرطب فى الأسواق ، والجنى من بكر النخيل على الأطباق ، عزت جوانحنا ذكر العدة ، وقلقل أحشـاءنا حذر الخيبة ، فركضنا الهماليج إلى حرمتك ، وجعلنا نشتد طمعا فى لقائك ، فلما غشينا الجهة تلقانا فتى وضاح الجبين ، آخذ بالعيون ، فى وجهه للأدب شـاهد ، وبين عينيه فى الظرف رائد ، فقال : «بأبى أنـتم ، وعين الله تكلؤكم حيث كنتم ! أراكم ناشـدى ضـالة أو مسـتدركى سيب فـائت ، فـاسألوا فربما سـقطتم على الخـبير ، وشاوروا فـالمشورة تفـتح غلق الأمـور» .

فـقلنا له «بآبائنا أنت ! إنا لنرجـو بيـمن لقـياك ظفـرا بالمطلب ، ونجـحـا فى المذهب . جارك وصديقنا الذى نحن تلقاء منزله ، وفى حاشية محله ، وعدنا منذ عام بأن يسهم لنا فى جنى نخلة لديه ، لم تتفقأ تربة هَجَر عن مثلها ، ولا أوت قمارى بصرى إلى شكلها ، فجئناه لنأكل منها وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين » .

قال الفتى : «يالإخواني في الخيبة ، وشركائي في فوت الأمل ! أنا ساكن المحلة التي منبت هذه النخلة في ساحتها ، وقد صرمها منذ خمسة عشر يوما ، ولقد كنت قبل صرامها أمنحها نظر العاشق إلى المعشوق ، فإذا رأت الطير وهي على سعفها ما أواصل إليها من لحظاتي ، وأتابع عليها من زفراتي ، رمتني بأفراد من رطبها أحلى من شفاه العذارى ، وأنا اليوم أبكي منها ربعا خاليا ، وبعد ثالثة أغدو عنها جاليا » .

فما هذا الخيس أبا عبد الله بعهدك ، وما هذه الربدة في وجه وعدك ، وما هذا الاستئثار على إخوانك المؤثرين لك ؟ إن كنت لم تحضرنا يوم صرامها لنحتكم على قولك فيها ، ونأخذ معك بأجزل الأقسام منها ، فالعذر لا يضيق عنك ، واللوم لا ينبسط إليك . هات مما ذخرته لساعات تفكهك ، أسهم لنا فيما أعتدته ليوم نوروزك . لم يكن جناها بنزر فيتقسمه الإهداء ، ولا بدون فتطيب عنه النفس ، ولا تخشى منا ما أفسد به ابن الزبير جنده ، حين قال لهم : «أكلتم تمري وعصيتم أمري» ، إذا نحن أكلنا منها فمرنا نناصب عنك أعداءك برا وبحرا ، ولا نعص لك أمرا ، جعلنا الله فداك ! نحن عصابة نتحلى بأدب ، وننتمي إلى حفظ غريب ، وصياغة قريض ، وربما لم تصدق في هذا الطريق مضاءنا ، ولا قبلت يقينا عناءنا ، فأردنا أن نصف لك شيئا من كلام العرب في النخل وبدء نباته ، والتمر وتلون حالاته ، فإن سرك ما جئنا به ، وراقك ما أفضنا فيه ، جعلت جوائزنا تمرا ، وكان ذلك لنا أجرا !

نعم ، تقول العرب لصغار النخل : الجثيث ، والوديّ ، والهِراء ، والغسيل ، والأشاء ، والكافور ، والضمد ، والإغريض ، فإذا انعقد سمته السياب ، فإذا اخضر قبل أن يشتد سمته الجدال ، فإذا عظم فهو البسر ، فإذا صارت فيه طرائق فهو المخطم ، فإذا تغيرت البسرة إلى الحمرة فهي شقحة ، فإذا ظهرت الحمرة فهي الزهو وقد أزهى ، فإذا بدت فيه نلطة من الإرطاب قيل قد وكت وهي بسرة موكتة ، فإذا أدرك حمل النخلة فهو الإناض ، فإذا أتاها التوكيت من قبل ذنبها فهي مذنبة فإذا بلغ الإرطاب نصفها فهو المخرع والمجزع لغتان ، فإذا بلغ ثلثيها فهي حلقانة ، فإذا جرى الإرطاب فيها كلها فهي منسبتة .

فيا أبا عبد الله أمجدنا رطبا ، نمجدك خطبا ، هذا قليل من كثير ، وثماد من بحور ، وليس يطيب وصفنا نظما ونثرا لمناقب هذه النخلة إلا بعد اختيارنا منها ، وفوز

قدا ضابها ، وإذا أنت فعلت فكلفنا فيها خاصة ما تكلفه عمرو بن بحر الجاحظ فى نخل الدنيا عامة نأتك به ، ونربى فيه عليه ، ولعلك تحب أن تسمع شيئا فى منظوم الكلام فى النخل يذيب من جمودك ، ويولد عقيم جودك ، فالمنظوم خداع بحسنه ، مستميل بطنه ، أنشد الأصمعى لأبى الغفار الرياحى :

غـدت سلمى تعاتبنى وقـالت	رأيتـك لا تريغ لـنا مـعـاشـا
فـقلت لهـا أمـا تكفـيك دهم	إذا أمـحلـت كن لنـا رياشـا
بوارك مـا يـبـالين الليـالى	ضـربن لـهـا ولـلأيام جـاشـا
إذا مـا القـاريات طلبن مـدت	بأسـبـاب ننـال بهـا انتـعـاشـا
تـرى أمطـاءهـا بـالبـر هـدلا	من الألـوان ترتعـش ارتعـاشـا .

هذا وإنا لنخشى أنك أزيد تماديا فى أمرك ، وأعظم شحا على تمرك ، إراغة المعاش ومعالجة الاقتيات ، فقال لها : فى النخل التى رزقنا الله كفافا من العيش كاف ، وبلغة من القوت مقنعة ، ثم أعظم من أمرها بدنو طعامها فى الجدوب ، وصبرها لتصرف اليالى والأيام . وماترى أرسل هذه الأبيات على ألسنتنا إلا شيطان قد شكا إليك عسرة ، فأنلته بسرة ، فهو يحب البقاء عندك ، ودفع متطفلى الإخوان عنك ! فلعن الله الشيطان وأعاذنا منه ، وصلى الله على محمد ولا صدنا عنه ، فإنه يقول : «نعمت العمة لكم النخلة» والخطاب لجميع المسلمين ، وأنت قد استوليت على عمة من عماتهم تستبد بخيرها دونهم ، وتمسك معروفها عنهم ونحن رجال من بنى أخيها أتينا نعتفيها ، فإن أنت سويتنا مع نفسك فيما تدر به عليك ، وتملأ منه يديك ، وإلا نافرناك إلى السلطان ، وألبنا عليك أبناء الزمان ، ونستغفر الله ونسأله أن يبدلنا من بخلك نوالا ، ويمطلك إعجالا !

ملحق

حفظ لنا ابن بسام فى الفصل الذى خصصه لابن برد الأصغر فى الذخيرة بعض فقر من كتابه « سر الأدب وسبك الذهب » ، أنقله فيما يلى :

قال ابن بسام :

كان أبو حفص بن برد الأصغر فى وقته ملك البلاغة الدائر ، ومثلها السائر ، نفث فيها بسحره ، وأقام من أودها بناصع نظمه وبارع نثره ، وله إليها طروق ، وفى عروقها الصالحة عروق ، إذ كان جده أبو حفص الأكبر واسطة السلك ، وقطب رحى الملك بالحاضرة العظمى قرطبة . وقد فخر أبو حفص هذا بذلك فى كتابه الموسوم بـ «سر الأدب وسبك الذهب » من أرجوزة يقول فيها :

يا طالب الدنيا بأقصى الجهد
اسع بجد منك لا بكد
من شاء خبرى فأنا ابن برد
حد حسامى قطعة من حدى
وأرفع الناس بناء جدى
من نظم الألفاظ نظم العقد
ونقد الكلام حق النقد
وكف بالأقلام أيدى الأسد
به استضاء فى الخطوب الربد
كل إمام وولى عهد ...

فصول مقتضبة من كتابه المذكور :

قال في صدره : أما بعد ، فإن الله تعالى – وله الحمد – جعلنا أهل بيت أشرب حب صناعة الكلام نفوسهم ، وشغل بطلب البيان والتبيين قلوبهم ، فغذانا بالبحث عن الأصول ، على حسب ما وهب الله تعالى لنا من المعرفة ، وسهل علينا من الحزونة ، حتى عرفنا المقسوم لنا منها فتفقهناه ، وفهمنا المنعم به علينا فأحكمناه ، ثم انعطفنا على الفروع فذهبنا مع فنونها واستكثرنا من عيونها ، ثم إنا لما رأينا أن الأصول قد اخترناها زاكية المنابت طيبة المغارس ، وأن الفروع قد لويناها لدنة الأفنان عذبة ، ترامت بنا آمالنا إلى أن نجتني من زهرتها ونطعم من ثمرتها ، ونمد يدا إلى غرس قد أبرناه حتى بلغ إناه ، فنقطف من خياره ، ونتأنق في اختياره ، وأصبحنا بعد نرمي أعراض الكلام بأسهم أزرها التسديد ، ونعقل مناظم القول بألسن بريء منها التعقيد ، ونذيب من المنثور جداول النطاف ، ونجمد من المنظوم جواهر الأصداف ، وكان جدي أحمد بن برد – رحمه الله – بطول ممارسته لهذه الصناعة برخاء اللبب ، والنهمة في الطلب ، ودعة الزمان وإقبال السلطان ، ومسافة العمر الممتدة له ، قد اقتعد سنامها ، ورفع أعلامها ، وأصبح إمامها ، وزين أيامها ، وركب وسط مساقها ، وأحرز قصب سباقها .

وفي فصل منها :

فإني وافقت أول معالجتي لهذه الصناعة أواخر أيامه ، وأوان بتات عمره وانصرامه ، خلا أنه – عفا الله عنه – ولما يحل المقدور به ، قد كان أقبسني مصابيح من وصاياه فيها ، ووطأ لي مراكب من دلائله إليها ، وضرب لي صوى من هداياته نحوها ، أفاد الله بها نفعا ، وأوسع معها إرشادا ، ثم إن الأيام إثر مصابه وبعد ذهابه باكرتني صروفها ، وشغلتني برقع خروقها ومكابدة ضيقها ، وسوق الأدب قد كسدت ، وجمرة السلطان قد همدت ، والعي أمضى من البيان ، والإساءة أحمد من الإحسان ، وأقلامنا يومئذ في عطلة ، ومحابرنا في عقلة ، وكتبنا تحت موجدة . وحينئذ قلت :

قـــرعنـا بالكتـــابة بـاب حظ ... لنـدخلـه فـــزاد لنا انـغـــلاقـــا

فـلم تـبلـغ بلاغـــتـنـا مـنـاهـا ... ولا مـــد المـداد لنا ارتـفـــاقـــا

ولا راحـت تـقــرطـس بالأمـــاني ... قـــراطـيـس أجـدنـاهـا مـســـاقـــا

وقلـمت المطالـب من حـــداهـا   لنا أقــلامنا ســاقـا فـســاقـا
فــلا هـطلت علـى الآداب مــزن   ولا برحت أهـلتـهـا مــحـاقـا
وعـــوضنا بمـا ندريـه جـــهـــلا   لعل الســوق مــدركـة نفــاقـا .

فما زلنا مع الخطوب مساجلين ، ولصروف الأيام مناضلين ، فيوم لنا ويوم علينا ، حتى إذا أراد الله أن يحيى لهذه الصناعة رسما ، ويعيد لها دولة واسما ، ويرفع سائر العلوم من التخوم إلى النجوم ، وفنون الآداب من التراب إلى السحاب ، طرف جفن السعد الباهت ، وارتد نفس الجد الخافت ، ولقى عثرة العلم مقيلها ، ودولة الجهل مديلها ، ونخوة الباطل مزيلها ، ورسوم الغباوة محيلها ، وقداح البلاغة مجيلها ، ورفعت لى سجوف الأمانى عن الملك اليمانى ، غرة كندة التى تضحك عنها ، وهضبة تجيب التى تأوى إليها ، أبى الأحوض معن بن محمد أيده الله كما أيد الحق ، وصدقه وعده كما أحيى الصدق ، فوصلت به سببى ولويت بقوى أطنابه طنبى ، ورأيت به للحلم جبلا موطودا ، وللديانة ظلا ممدودا ، وللتقوى حبلا مشدودا ، وللعلم بحر طموحا ، وللأدب روضا مجودا مروحا ، ولم يزل منذ اعتصمت بحرمته ، واعتزيت إلى خدمته ، يقبل علىّ فى مجالسه المأنوسة باللحظ واللفظ ، ويكسبنى بمنازعة الأدب شرف المرتبة والحظ ، فأئتمرن على تثقيفه وتقويمه ، وأتضمر عن رياضته وتعليمه ، وتلذنى هيبة كماله وروعة جلاله إلى شحذ سجاياى وجمع قواى ، واجتناب الخطل فى إيوانه ، والزلل فى ميدانه ، فلا ترى شيئا أشبه به فى التفضل ، وبى فى التقبل من قول حبيب :

نرمـى بأشـــــبــــاحنـا إلى مـلك   نـأخــــذ مـن مــــاله ومـن أدبه

والبلاغة وإن كانت من فنون العلم أرق ما استرق ، وألطف ما عرف ، وأيسر ما به حاضر ، وأقل ما أمل ، وأوهن ما خزن ، وأدنى ما اقتنى ، فله كلف بانتقادها شديد ، وصوت فى معرفة نقادها بعيد ، وقد خلص بيمينه العالية جوهر الكلام من أخباثه ، وممر القول من أنكاثه ، فى غير ما كتاب منتم إلى البلاغة معلم فى الكتابة ، فجاء بالصواب حاسرا ، وبيبان الحقيقة سافرا ، وفى هذا النقد سقط العشاء بمن سقط على السرحان ، وفيه أساء من احسن بنفسه الظن فى الإحسان .

ومن هذا الباب تولجت إلى صنعة هذا الكتاب ليرى - أيده الله - كيف نبت كلامى على سقيه ، ونما ما أودع تربة قبولى من غرسه ، فإنى ضمنته فى فنون من البلاغة وفصول من الكتابة سلطانيات وإخوانيات ، وكل ما أوردته مما ولدته ، وما وضعته مما صنعته ، لم أغله لغيرى ، ولا خنت فيه أمانة سواى ، إلا أننى طرزته بأبواب من بيوت الشعر المحتوية على الحكم البوالغ ، والجارية مجرى الأمثال السوائر ، لشعراء مجيدين وعلماء مفيدين ، قد ركبوا من المعانى أوطأها مركبا ، ووردوا للألفاظ أعذبها مشربا ، وتخطوا فى نظمهم الخشونة إلى اللدونة والتكلف إلى التلطف ، وخاضوا جسوم الحكم إلى الأرواح ، وخرجوا بحسن التخلص من الالتباس إلى الإيضاح ، لئلا تباين طبقة منثورة طبقة منظومة ، ولا تبعد مرتبة جامدة من مرتبة ذائبة ، وليأتى فى ازدواج الليل والنهار ، وامتزاج الماء بالعقار .

الفصل الثانى

ابن فتوح أديب أندلسى غمره النسيان

لم يبق لنا كثير من أخبار أبى المطرف عبد الرحمن بن فتوح الشاعر الأندلسى الذى عاش فى القرن الحادى عشر ، اللهم إلا ما يقدمه لنا الفصل الذى يعرض لأدبه ، تضمنته ذخيرة ابن بسام[1] ، ذلك المؤلف الضخم فى طبعته الأمينة ، وبالرغم من أن باحثين كثيرين يتكئون عليها فى دراساتهم إلا أنها توقفت عند المجلدات الثلاثة – وهى تمثل ثلاثة أثمان العمل كله – التى نشرتها منذ أمد ليس بالقصير كلية الآداب بجامعة القاهرة(*) .

بخلاف هذا الفصل الذى فى الذخيرة ، لا أعرف مصادر أخرى عن الشاعر حاشا ما وقعت عليه عرضا فى المطرب لابن دحية ، مستشهدا ببيتين ينسبان للشاعر[2] وخبر يسير عثرت عليه فى « التكملة » لابن الأبار[3] أنقله فيما يلى :

«عبد الرحمن بن فتوح ، يكنى أبا الحسن[4]، روى عن أبى بكر مسلم بن أحمد الأديب بقرطبة ، وكان من أهل الأدب والشعر ، وله كتاب « بستان الملوك » ، ذكره القنطرى »[5] .

لا ندرى إلا هذا عنه ، لا شىء عن أصله ، ولا تاريخ مولده ولا موته ، ولا يجىء اسمه فيما كتبه المقرى فى مؤلفه المسهب الضخم «نفح الطيب» ، ولا شىء ، وقعت عليه – إن لم يجانبنى الصواب – فى المصادر المتعددة من كتب التراجم التى كان فى ذرعى أن أستشيرها ، وعلى الرغم من المادة الهائلة – بما فيها الذخيرة – التى وقف عليها هنرى بيريس H. PERES فى كتابه «الشعر الأندلسى» فإنه لم يأت فيه ذكر لابن فتوح .

(*) كتب الأستاذ جرانخا ذلك قبل أن يصدر د . إحسان عباس كل أجزاء الذخيرة – المترجم .

ثمة أيضًا بعض الريب فيما يتعلق باسمه ، فكنيته - بدءًا ذى بدء ، كما رأينا فى التو - ليست هى ذاتها فى « الذخيرة » كما فى « التكملة » ، فإن لم يكن يستخدم الكنيتين فإنه يبدو لنا أن ما جاء فى الذخيرة أولى بالثقة : لأن من يسمى عبد الرحمن يكنى عادة بأبى المطرف ، أما نطق اسمه ابن فتوح فيبدو وأنها النطق الملائم ، هكذا ضبطه غرثيه غومث فيما نعت به هذا الجزء من الذخيرة(٦) مطابقا بذلك ضبط اسمه فى العنوان الذى يتصدر الحديث عن الشاعر ، لكن فى تضاعيف الذخيرة نفسها نصادف اسمه بتشديد التاء «ابن فتّوح» وبهذه الصيغة ذاتها ضبط اسمه ناشرو المطرب(٧) ، وفى وسعنا أن نقول شيئا مثل هذا فيما يتعلق بلقبه فهو ابن صاحب الاسفيريا كما يتضح فيما بعد .

نعرف نزرا يسيرا عن حياته ، فهو قرطبى حسب ما نفهم منه هو فى نص أنشره فى نهاية هذا الفصل ، ومن المحتمل أنه من أصل متواضع جدا ، إذا عولنا على ما يومئ به لقبه المعروف ابن صاحب الاسفيريا ، الذى يعنى أن أباه كان يكسب قوته من صنع هذا الضرب من الطعام اللذيذ(٨) .

كان صديقا لابن برد الأصغر ولعله أيضا كانت تربطه صداقة ببعض مشاهير الأدباء من زمرة ابن برد ، وفى بعض الوقت حظى برعاية واحد من بنى جمهور ، أو كما ذكره ابن الأبار ، وكما يخبرنا ابن بسام ، وبلا ريب بحث عن حظ أفضل فى طليطلة ، وإلى ملكها المأمون أهدى إليه مؤلفات أخر ، كما وقفنا - من خلاله هو - على إقامته فى المرية ، أو على الأقل مروره بها فى سنة ١٠٣٩ - ١٠٣٨ = ٤٣٠ ، وهو التاريخ الوحيد الذى نعرفه من حياته إذا كان حقيقيا(٩) .

تحت عنوان «ذكر الأديب أبى المطرف عبد الرحمن بن فتوح ، وإثبات جملة من شعره فى الغزل والمديح» خصه ابن بسام - كما قلنا آنفا - بحديث استهله هكذا :

«بلغنى أنه كان يُعرف بابن صاحب الاسفيريا من مشاهير الأدباء ، وله شعر كثير ، إلا أن إحسانه نزر يسير ، وله تآليف فى الأدب ترجمة بكتاب «الإغراب فى رقائق الآداب » ورفعه إلى المأمون بن ذى النون ، وتصنيف آخر سماه بكتاب « الإشارة إلى معرفة الرجال والعبارة» وكتاب سماه « بستان الملوك » رفعه إلى ابن جهور أيام إمارته بقرطبة » ، ثم يستطرد ابن بسام متحدثا عن صداقته بأبى حفص بن برد الأصغر الذى زاحم معه شعراء آخرين حسب ما صرح به ابن فتوح فيما نقله عنه صاحب الذخيرة ، فزاحم الشعراء فى مقطوعاته القصيرة الرائعة ، وإن كان لم يزاحمهم فى

القصائد الطوال[١٠] ، قال ابن بسام : «وابن فتوح هذا كثير الاهتدام لأشعار سواه ، قبيح الأخذ فى كل ما انتحاه ، وشعره كثير البرد ، وبينه وبين ابن برد من مسافة البعد ما بين القطب الثابت والقصب النابت »[١١] .

إن ابن بسام شديد الإعجاب بابن برد الأصغر ، يبدو ذلك بوضوح فى الصفحات الكثيرة التى خصصها له[١٢] ثم يضيف قائلا : «وقد أثبت فى هذا المجموع من شعر الرجلين ، ما يتبين به الصحيح لذى عينين . على أنى ظلمت ابن برد ولم أعدل ، إذ لا يمثل بينهما بأفضل»[١٣] ، وبالفعل فإن ابن بسام يستشهد أيضًا بعدد لا بأس به من شعر ابن فتوح تحت عنوان «جملة من شعر ابن فتوح فى النسيب» – فى الوقت الذى ليس كل ما يرد منه نسيبا – فى موضوعات ابتذلها كثرة الطراق ، ذاكرا فى كل خطوة الشعراء المشارقة والأندلسيين (ابن هانئ ، وابن برد ، وابن زيدون ، والطليق ، وآخرين) الذين تقيّلهم هذا البيت أو ذاك ، مشهرا به فى سياق الحديث ، مواجها إياه بالتعبيرات والمعانى التى يراها عاطلة من الجمال ، وفى الحالات التى يكون فيها ابن برد مسروقا منه ، أو يذكر ببيت له فى الموضوع ذاته ، فإن الميزان يميل دائما لترجيح هذا .

أحد هذه الموضوعات – التى من الممكن إلا أن تحدث – هذا الموضوع المعروف جيدا حين يبدو العذار مشوها وجه الغلام :

وقف الإعذار بخده ، فحسبته ليلا توقف وسط ضوء نهار

وتوردت وجناته ، فحسبتها نارا تلظى فوق ماء جار[١٤] .

ونرى – مع الأخذ فى الاعتبار ما زودنا به ابن بسام – أن موضوع الغلمان لدى ابن فتوح كان يخضع – ليس فحسب لاستيفاء رياضة بيانية لازمة بل لاعتبارات شخصية غامضة قبل كل شىء لم يكن يحاول إخفاءها ، فيما يلى أورد – فى إيجاز – مشهدا من حياته رواه هو نفسه ، فيما نقله إلينا ابن بسام فى الذخيرة[١٥] .

وحدث ابن فتوح عن نفسه قال : ماشيت يوما غلاما معذرا ، كنت قديم الامتزاج به ، والكلف بقربه ، فلقينى بعض إخوانى معه ، فقال لى : مثالك فى عصرنا مثال ذى الرمة فى وقته ، تقنعك الأطلال ، وما دثر من الديار ، ففهمت عنه ، وأنشدته قبل أن يستتم كلامه بيت أبى تمام :

ما ربع مية معمورا يطيف به غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب

فقال : إلى متى يوم غرامك بهذا الغلام ، وهذه بنود عزلته قد رُفعت ، وعقدات خلعته قد عُقدت ، فقلت : لا والله ، ما أرى بنود عزلة ، ولاعقدات خلعة ، وإنما أرى لامات مسك في صحيفة كافور ، وسطور دجى في مهارق نور ، فولى عني . وكتبت إليه :

أيهـــا العـــاند المفند جــــهـــلا	فى هـوى من قـوام نـفـسـى هواه
أنت تـلحى علـى قــضـيـب لجين	عطـفـتنى عن غـيــره عطفـــاه
كـان صـبـحـا لعــاشـقـيـه فـلمـا	بقلـت صـفـحـتـاه أعـشـى سناه
مـثل ضـوء الهـلال يزداد ضـعـفـا	نوره إن دجـت له أفــقــاه[١٦](*) .

القصـة ذات مـغزى واضح ، وهـى واحدة من كثـير غيرهـا تبرز موضـوع الكلف بالغلمـان فى إسبـانيا الإسلامـية ، وغير خـفى أن ابن فتـوح لم يشعـر بـأى حرج من روايتها ، بل إن ابن بسام راق له أن يضمها إلى كتابه .

ينعكس هذا الميل الشاذ عند ابن فتوح فى نص نثرى ينتهى به الخبر الذى أورده ابن بسام ، نص يرد فقط فى مخطوطين استشارهمـا محققو هذا القسم من الذخيرة ، وهو يشكل الغرض الأساسى فى هذه الصفحات .

يستـهل هذا النص المشـار إليـه بقوله : حـدثنا ابن فتـوح أيضًا عن نفسـه[١٧] . ومـحتمل جدا أن يوجد فى أحد مـصنفات هذا الكاتب التى ذكرهـا ابن بسـام رسـالة أو مقامة تشاكل أسلوب رسالة التوابع والزوابع لابن شـهيد[١٨] ، بمعنى أنه عن فحوى موضـوع من الموضـوعات الواقعـية أو المتـخيلة يتشكل فى كل فصل من الفصـول نقد لأدباء الأندلس (من المحتمل أيضًـا لأدباء المشرق) ، ولا ننسى أن الكاتب كـان معاصرا لابن شـهـيـد ، وكان مـعـجبا به ، وقـد أقام الأديب المعروف ابن شـرف القيـروانى فى إسبانيا ، وألف كذلك كتابا فى النقد الأدبى ، وإن كان ذا أسلوب مختلف جدا[١٩] .

فيما يتعلق بالشكل – حاشا فاتحة العمل – فإن النص كله تقريبا جاء فى نثر مسجوع ، وإن كان فى غير إحكام وإتقان ، من الممكن أن يكون ابتداعا أدبيا محضا ، وإن كان من المحتمل كذلك كونه عبارة عن رواية متأنقة تحكى تجربة عاشها الكاتب .

(*) أسقط المؤلف بيت أبى تمام وأبيات ابن فتوح ، وبعض عبارات نثرية ، ربما كانت ترجمتها إلى الإسبانية تفقدها كثيرا وأثبت المؤلف مكانها أنها مجموعة من الاستعارات ، وقد رأينا الإتيان بها من ابن بسام – المترجم .

يوجد في النص دليلان محددان : المدينة ، والعام الذى وقعت فيه القصة ، هذا الدليل الأخير ليس من المعقول وجوده لو كان العمل ثمرة ابتداع أدبى محض ، الموضع هو لقاء الكاتب بغلام «حسن المنظر » DE BUENA PRESENCIA – وهو موضوع يّطبى المؤلف كما رأينا آنفا– بدأ معه حوار ، توثقت به علاقة بقيت فى منطقة الظل ، لكى ينتهى بعمل يشكل القصد الأساسى للكاتب : هو تقييم أربعة في شعراء الأندلس : أبى حفص بن برد ، وأبى عامر بن شهيد ، وأبى الوليد بن زيدون ، وأبى بكر يحيى بن إبراهيم الطبنى ، وذلك عبر نوع من الاختبار ، يقيم فيه الممتحِن – بكسر الحاء المهملة – والممتَحن – بفتحها – الميزة التى ينفرد بها هؤلاء الشعراء موضوع الحديث .

وبصرف النظر عن الإصابة فى الرأى التى غدت بها محددة الموهبة الشعرية لكل شاعر من هؤلاء ، فينبغى إبراز الحصافة النقدية لدى ابن فتوح الذى اختار من كوكبة شعراء معاصرين له – أسماء شعراء يعتبرهم النقد الشرقى والغربى من كبار الشعراء .

هذا واضح خاصة بالنسبة لابن شهيد وابن زيدون فى المقام الأول ، مع الأخذ فى الحسبان قلة ما وصلنا من آثار ابن برد الأصغر ، أما فيما يتعلق بأبى بكر يحيى بن إبراهيم الطبنى ، فإنه يبدو وأن الأمر يقتضى بعض ترو ، فمن بين أفراد أسرته المعروفين بقرض الشعر لا نجد أحد يدعى يحيى بن إبراهيم ؛ لذا ينبغى بالتالى أن نتحفظ كثيرا فيما يتصل بمكانته لأنه غريب أن تكون له هذه المرتبة ، ولا نجد له تراثا شعريا ، ولا حتى نجد ذكرا لاسمه(٢٠) ، وخصائصه بإعتباره منتحلا ، ومقلدا لغيره من الشعراء تشاكه ابن فتوح ، ولعله وراء هذا يكمن الباعث فى أن ابن فتوح – كأنه يدافع عن نفسه هو – قد اعتبره شاعرا مجيدا .

هوامش

(١) الذخيرة ١/٢ ص ٢٧٣ – ٢٨٨ .

(٢) طبعة إبراهيم الإبيارى وحامد عبد المجيد وأحمد بدوى . القاهرة ١٩٥٤ ص ٧٦ ، وهذان البيتان بروايتين فى الذخيرة ١/٢ ص ٢٧٨ .

(٣) التكملة جـ ٢ ص ٥٤٩ ترجمة برقم ١٥٥٢ .

(٤) جمع ابن بشكوال ترجمته فى الصلة ص ٥٦٧ ترجمة رقم ١٢٦٤ ، عاش من سنة ٣٧٦ حتى سنة ٤٣٣ (٩٨٦ – ١٠٤٢) أخبار عن الطبنى (هكذا ليس إلا) . ألا يكون – بلا ريب – هذا الطبنى تلميذا لمسلم أيضاً ، الشاعر الذى يقصده ابن فتوح ؟ انظر ما سيأتى ص ٧٣ هامش ٢٠ .

(٥) عن أبى القاسم أحمد بن عبد الله يتحدث مصدر غير مباشر عن ابن الأبار . انظر تكملة الصلة لابن الأبار جـ ١ . ط أ – بيل ومحمد بن شنب . الجزائر ١٩٢٠ . ص ٧ من النص العربى ، وص ١٨ من الترجمة هامش ١ .

(٦) انظر مجلة الأندلس . عدد ١١ (١٩٤٦) ص ٢٥٤ .

(٧) الذخيرة ١/٢ ص ٣٩ مع ذكرها ثلاث أبيات توجد مرة أخرى فى ص ٢٧٤ وفى المطرب ص ٧٦ (أول هذه الأبيات : قد قضيب وبدر ديجور ∴ وثغردر ولحظ يعفور – المترجم) .

(٨) اسم هذا الطبق (كما وصلت إلينا بيانات كثيرة عنه) وكما كان ابن فتوح معروفا بهذا اللقب ظهر بصيغ متعددة ، فى البداية كما جاء فى مخطوطات الذخيرة ١/٢ ص ٢٧٣ هامش ٣ يكتب الأسفيريا ، ومخطوط كتاب الطبيخ الذى نشره A. HUICI كتاب الطبيخ فى المغرب والأندلس فى عصر الموحدين ، نشر فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد العدد ١٠٢٩ سنة ١٩٦١ – ١٩٦٢ من ص ١٥ – ٢٥٦ فى الطبعة العربية يقدمه كما يلى : اسفيريا ، اسفريا ، سفيرية . انظر ص ٨ ، ٩ ، ١٠٦ من الترقيم الخاص بالمؤلف . وكتاب الطبيخ الذى درسته لكاتب أندلسى والذى أشرت إليه فى «الأندلس» عدد ٢٥ سنة ١٩٦٠ ص ٢٣٧ يورد هذه الصيغ اسفيرية ، اسفرية ، حتى اسفارية ، وطريقة صنع هذه الطبق كما يعد للبيع فى الأسواق ظهر فى المخطوط الذى نشره Huici عن الطبيخ الإسبانى المغربى . مدريد ١٩٦٦ . ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، أما دوزى فقد دون صيغتين فقط (انظر الملحق جـ ١ ص ٢٢) .

(٩) سأشير إلى هذا كله بإسهاب فى السطور القادمة .

(١٠) الذخيرة ١/٢ ص ٢٧٣ .

(١١) السابق ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(١٢) انظر الذخيرة ١/٢ ص ١٨ - ٥٢ . الصفحات التى استندت إليها فى الفصل الأول من هذا الكتاب .

(١٣) المرجع السابق ١/٢ ص ٢٧٤ .

(١٤) المرجع السابق نفس المكان .

(١٥) يستهل هذا النص بقوله : وحدث ابن فتوح عن نفسه .

(١٦) الذخيرة ١/٢ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، وحرف اللام لصورته فى الكتابة يستعار للتشبيه بالعذار .

(١٧) الذخيرة ١/٢ ص ٢٨٦ .

(١٨) نص الرسالة - غير كامل - موجود فى الذخيرة ١/١ ص ٢١٠ - ٢٥٧ ، وثمة طبعة محققة منقولة عن الذخيرة لبطرس البستانى ، بيروت ١٩٦٧ ، والقارئ غير العربى - وغير المستعرب - فى وسعه أن يأخذ فكرة عن هذه الرسالة مستعينا بمقال الإلياس تيريس بعنوان مظاهر عن المنافسات الشعرية فى الأندلس ، بمناسبة تكريم ملياس بيكروسا ، برشلونة . القسم الثانى ١٩٥٦ ص ٤٤٥ - ٤٦٦ وبخاصة من ص ٣٥٣ إلى النهاية . وقد نشر أستاذى دون اميليو غرثيه غومث أنه سيقوم بنشر ترجمة كاملة لهذه الرسالة قريبا .

(١٩) نص هذ الرسالة لابن شرف موجود فى الذخيرة كذلك ١/٤ ص ١٥٤ - ١٦٧ ، ولهذا المصنف طبعة مع ترجمة ودراسة للأستاذ شارل بيلا فى Questions De Critique Littéraire ، الجزائر ١٩٥٣ لكنى لم أستطيع استشارتها .

(٢٠) على الأقل وفيما يبدو محتملا أن ثمة خطأ ، ولعله فى الواقع إبراهيم بن يحيى بالكنية ذاتها أبو بكر صديق ابن حزم ، والذى ذكره الأخير فى حديثه عن آل الطبنى فى جمهرة أنساب العرب ط ليفى بروفنسال . القاهرة ١٩٤٨ ص ٢٠٩ . وانظر إلياس تيريس فى مقاله أنساب عربية فى الأندلس المنشور فى مجلة الأندلس عدد ٢٢ سنة ١٩٥٧ ص ٩٤ هامش ٢ . وينبغى الإضافة إلى ترجمة هذه الشخصية المذكورة ما جاء من خلال ابن حزم ، وقد أخذه عنه الحميدى فى الجذوة ص ١١٩ - ١٥٠ ، ترجمة رقم ٢٩٤ واستفعله - كعادته دائما - الضبى فى البنية ص : ٢١٢ ، ٢١٣ وإبراهيم بن يحيى هذا يجيء مشفوعا بلقب وزير ، أديب ، شاعر ، ولاعتماد هذا اللقب الأخير يذكرون له بعض أبيات ، وحتى وإن كانت هذه الشخصية هى شخصية الشاعر الذى تحدث عنه ابن فتوح فإن رأيى يظل كما هو عند عدم العثور أيضًا فى كتب التراجم ، وبوصفه شاعرا لم يتعد أن يكون شاعرا متوسطا .

مقامته عن شعراء عصره

كنت ليلة في رمضان أطوف بالمسجد الجامع بالمرية سنة ثلاثين ، وإذا فتى حسن المنظر فسلم عليّ سلاما ارتاحت له نفسى ، وانشرح له صدرى ، فرددت عليه رد من توسّم فيه سمة الفهم ، فقال لى : بحرمة الأدب إلا ما أعدت عليّ البيت ، فأعدته وأنشدت سائر الأبيات ، فقال : الشعر إثم (ثم) قال لى : إنما أخذته من قول العباس بن الأحنف :

وأحسن أيام الهوى يومك الذى   تروع بالهجران فيه وبالعتب

إذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضا   فأين حلاوات الرسائل والكتب .

فقال : وريت بك زنادى ، فأخبرنى عن السبب الموجب لترديدك البيت ، قلت له : منيت بخِل مولع بالخلاف مائل إلى قلة الإنصاف ، إن لاينته غضب ، وإن استعتبته عتب ، وقد علم الله شفقة نفسى لفرقته ، فقال : قلب الله لك قلبه ، وجنبك عتبه ، ثم ولى عنى وقد غرس فى كبدى ثمرة وده ، فبت الليلة مستأنسا بخياله ، جذلان بوصاله ، حتى رأيت غرة الفجر تلمع فى كفل الدجى ، فخلته بحرا تسرب فيه جدول ، أو عجاجا سل من تحته منصل ، فقمت بانيا على قصوده ، فلم ألبث أن سمعته ينشد ويطلب منزلى ، فقرع الباب ، وأذنت له فدخل ، فرحبت به وقمت إليه وأقبلت عليه ، فقال لى : يا ابن الكرم إن هذا يوم قد بكى ماء غيمه ، ونبض عرق برقه ، وخفق قلب رعده ، واغرورقت مقلة أفقه ، ونحن لا نجد الخمر ، فبم نقطع تأويبه ؟ فقلت : الرأى إلى سيدى أبقاه الله ، فقال لى : كيف ذكرك لرجال مصرك ووقوفك على شعراء عصرك ؟ فقلت : خير ذكر ، فقال : من أعذبهم لفظا وأرجحهم وزنا ؟ قلت : الرقيق حاشية الظرف ، الأنيق ديباجة اللطف أبو حفص بن برد . قال : فمن أقواهم استعارات وأصحهم تشبيهات ؟ قلت : البحر العجاج ، والسراج الوهاج أبو عامر بن شهيد ، قال : فمن أذكرهم للأشعار وأنظمهم للأخبار ، قلت : الحلو الظريف البارع اللطيف أبو الوليد بن زيدون ، قال : فمن أكلفهم بالبديع ، وأشغفهم بالتقسيم والتتبيع ؟ قلت : الراتع فى روضة الحسب ، المستطيل بمرجه الأدب أبو بكر يحيى بن إبراهيم الطبنى ، فأنشد :

وخاطب قسا فى عكاظ محاورا   على البعد سحبان فأفحمه قس .

الفصل الثالث

من نثر أبى حفص عمر بن الشّهيد

فى القسم الثانى من المجلد الأول من الذخيرة لابن بسام فصل خاص بالأديب أبى حفص عمر بن الشّهيد[1] يضم رسالة عجيبة له موجهة إلى أحد أصدقائه لم يثبت اسمه ، وفصولا من مقامة ليس لها عنوان ، ومختارات من شعره ، تأتى هذه المنتخبات النثرية والشعرية لابن الشهيد بعد مقدمة موجزة لابن بسام يمدح فيها الأديب ، لا فائدة منها على الإطلاق - ولو فى سطور عامة - لتصنيف ترجمة لهذا الأديب .

وهذه الصفحات عبارة عن ترجمة لهذه الفصول النثرية لابن الشهيد الشاعر الأندلسى الذى عاش فى ألمرية قبل تسعة قرون .

لا أعرف أحدا درس شخصية ابن الشهيد ولا أدبه ، أشار إليه - عرضا حين كانت « الذخيرة » رهن المخطوطات - الأستاذ هنرى بيريس فى كتابه الجيد «الشعر الأندلسى فى اللغة العربية الكلاسيكية» بصدد الحديث عن مقامته التى أشرت إليها فى التو ، وقد وجد الأستاذ بيريس بين هذه المقامة وبين « رسالة التوابع والزوابع » لابن شُهيد « تشابهات قاطعة » وأكد أن صاحبنا أبا حفص : « عالج الموضوع ذاته ، من وجهة النظر ذاتها »[2] .

أعترف - مع كل تقديرى الذى يستأهله شخص الأستاذ بيريس وكتابه - أننى لا أجد بين العملين أى تشابه ، حاشا ما يمكن أن يوجد بين العملين من أنهما كتبا فى عصر واحد تقريبا ، واتبع كلاهما طريقة السجع ، ولست بواجد أية علاقة بين موضوع كل من الرسالتين ، ولا بفاهم إلى أى وجهة نظر يومئ الأستاذ ، وفيما بعد يقيم افتراضا ذكيا يحاول خلاله أن يبين تأثيرا محتملا من الأدب اليونانى فى رسالة التوابع والزوابع[3] ، يشير إلى ذلك بوضوح ، وإن كان هو ذاته يعتبر التأثير ضعيفا ، لست أكرر رأيه هذا هنا ؛ لأن كتابه «الشعر الأندلسى» فى وسع القارئ أن يرجع إليه فى يسر ولئلا أخرج عن الموضوع، أقول إن هذا يخرج بنا عن الموضوع ؛ لأن بيريس يؤكد

على أن صاحبنا أبا حفص استوحى من قريبه وسلفه أبى عامر بن شهيد ، افتراض القرابة هذا – فيما أتصور – هو الذى دفعه إلى أن يرى هذه المشابهة بين الرسالتين ، والأستاذ بيريس – دون علة معروفة – يدعو أديبنا هذا أبا حفص بن شهيد . ضبط يمكن قبوله فى البداية ، لكن بدون استغناء عن أداة التعريف ، لا أجادل فى أن أبا حفص كان فى ذرعه أن يستوحى الشاعر القرطبى الكبير ، لكن نعم لو وجدت تلك القرابة بينهما كما سوف نرى الآن .

ترسمه الذخيرة المطبوعة وتضبطه هكذا «ابن الشّهيد» دون أن تشير إلى أى اختلاف ، وظهر أيضاً فى نفح الطيب مع أداة التعريف خلال رواية يظهر فيها الشاعر سنتناولها فيما بعد ، وإذا كان الأستاذ بيريس – فيما يبدو – قد استغنى عن روايات أخرى تتناول الأديب ، فكان عليه أن يحترس أمام صمت ابن بسام عن علاقة القرابة المفترضة بالشاعر القرطبى الكبير ، ونظرا لشهرة ابن شهيد ما كان كاتب الذخيرة ليغفل هذه الإشارة ، بيد أن الحجة الأقوى ضد هذا التأكيد ما زودنا به الحميدى فى «جذوة المقتبس» ، ونقله عنه الضبى فى «بغية الملتمس» فى ترجمة عمر بن الشهيد (بأداة التعريف) أبى حفص ، بنسبة «التجيبى» يقول الحميدى : «لا أحفظ اسم أبيه ، وابن الشهيد هذه صفة نسب إليها ، فغلبت عليه» .

وبجانب هذه الإشارات يظهر اسمه فى كتاب «أعمال الأعلام» لابن الخطيب فى عبارة طويلة منقولة بالنص عن ابن بسام ، وضبطه الناشر – أظن ذلك فقط فى الطبعة الثانية – بابن الشهيد ، ومن المحتمل أن نيكل Nykl – لأنه رجع إلى كتاب بيريس – ضبطه عمر بن شهيد فى كتابه Hispano Arabic Poetry [٤] «الشعر الأندلسى» مستندا إلى « نفح الطيب » [٥] .

قليل ما يرويه مؤلف « الجذوة » [٦] عن صاحبنا – وكتابه أقدم المصادر التى لدينا ، إلى جانب ما قيل من قبل – يقول إنه رئيس ، وشاعر مشهور بالأدب كثير الشعر ، متصرف فى القول ، مقدم عند أمراء بلده .

ويقتصر الحميدى على نقل بعض شعره ، ونسخ الضبى بعضا منه[٧] ، وهذه القصائد موجودة كذلك فى «الذخيرة» ، يلقبه ابن بسام فى تقديمه له بلقب الوزير – وهو لقب لا يعنى – دائما وكما نعلم – هذه الوظيفة[٨] ، نجده يقول عنه هذه الكلمات : «وأبو حفص هذا فى وقتنا كان فارس النظم وأعجوبة القران والعصر ، ونهاية الخبر والخَبر ، رقم برود الكلام ، ونظم عقود النثر والنظام ، وهو وإن لم يزر الملك ، ولم تدر

عليه رحى ملك ، فليس بمتأخر عن طبقات المحسنين ، ولا بسكِّيت حلبات الكتاب المجيدين» ثم يضيف قبل أن يذكر مختارات له :« وقد أخرجت فى هذا الفصل من بارع كلامه ، فى نثره ونظامه ، ما يشهد بوضوح أعلامه ، وشهر أيامه»(٩) .

الخبر الوحيد الذى لدينا عن حياته هو أنه كان مادحا للمعتصم صاحب ألمرية وفى «الذخيرة» قصائد متعددة فى مدح هذا الملك الذى كان راعيا عظيما للآداب ، يتحدث ابن بسام عن المعتصم فيذكر أن ابن الشهيد كان من جملة فحول الشعراء الذين أعملوا إلى حضرته الرحال ، ممن لم يعلق بسواه سببا ، ولا شد إلى غير ذراه كورا ولا قتبا(١٠) ، والتقى به الحميدى فى مدينة ألمرية حوالى (عام ٤٤٠ = ١٠٤٨ - ١٠٤٩)(١١) والرواية التى حفظها لنا المقرى(١٢) والتى خاب فيها أمل الشاعر - هى برغم ذلك - هامة ؛ لأنها تقفنا على التقدير الضخم الذى كان يوليه الملك لشعره : عند فراغه من إنشاد إحدى قصائده يمدح فيها كرم الملك ، التفت الممدوح إلى الشعراء الحاضرين وسألهم : «فيكم من يحسن أن يجلب القلوب بمثل هذا ؟ فقال أبو جعفر بن الخراز البطرنى : نعم ، ولكن للسعادة هبات ، وقد أنشدت مولانا قبل هذا أبياتا أقول فيها :

وما زلت أجنى منك والدهر ممحل ولا ثمر يجنى ، ولا زرع يحصد . الأبيات(*)

وقد حصل الشاعر أبو جعفر بذلك على صلة ملكية سنية(١٣) .

يحتوى «المغرب» لابن سعيد أيضًا على الثلاثة الأبيات الأولى فى هذه القصيدة ، ويذكر عبارة المسهب «وكان مقتصرا على ملك بلده المعتصم بن صمادح»(١٤) مما يشى بأن الكاتب كان يعتبر الشاعر مولودا فى ألمرية ، وهو شىء غريب - فى أى حال - فإن الكتاب القدماء الذين اهتموا بابن الشهيد لم يذكروا شيئا عن هذه المسألة .

إلى هنا تنتهى الأخبار التى استطعنا العثور عليها عن أبى حفص عمر ابن الشهيد التجيبى .

نتخلى عامدين عن شعره - ومنه نماذج كثيرة فى «الذخيرة» - لأنه لا يمثل أهمية بالنسبة لنثره ، شعره - فى معظمه - مقطوعات من قصائد فى مدح المعتصم وفى مناسبات مثل هجر المعتصم للنبيذ زمنا ، وقصائد أخرى تجدها بنصها عند الحميدى ، أو منقولة عنه ، ولا توجد فى «الجذوة» .

(*) هى ثلاثة أبيات لم يذكر المؤلف واحدا منها - المترجم .

أما نثر ابن الشهيد – فى حدود ما أعلم – فلا يبدو أنه أيقظ صدى بين أدباء إسبانيا الإسلامية ونقادها ، جمع ابن بسام فحسب شيئا منه ، لكن فيما يبدو نجد صمتا مطبقا حول عمله ، وهو شىء جائر تماما ، المقطوعتان اللتان بسبيلنا – وقد ترجمناهما إلى الإسبانية فى الصفحات التالية – تبدوان لى ذاتىْ قيمة كافية لكى تجذب انتباه الكتاب المعاصرين واللاحقين لصاحبهما ، وإننى لأعتبر أن الرسالة ومثلها المقامة عملان – من وجهة نظر غربية وبعد تسعة قرون من كتابتهما – يحويان أهمية قيمة تعلو على ما هو شائع فى الأدب الأندلسى .

إن المؤلف الذى يقف جيدا على الأدب العربى ، لا يشعر من ثم بأية ضرورة للتباهى بهذه المعرفة ، وإن كان ثمة بيت زوق به عمله مأخوذ من أبى تمام– كما يعترف المصنِّف – ولا يدفع الضريبة الإجبارية لمعرفته الواسعة التى هى خصيصة شائعة فى الأدب العربى ، ولا يخضع فى عبودية عمياء للتقليد ، حين نقرأ ما بقى من نثره وبخاصة مقامته تطفر إلى الذهن كلمات ابن حزم فى مقدمته لطوق الحمامة : «[والتزمت فى كتابى هذا الوقوف عند حدك ، والاقتصار على ما رأيت أو صح عندى بنقل الثقات](*) ودعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبى أن أنتضى مطية سواى ، ولا أتحلىٰ بحلى مستعار»(١٥) .

أما رسالته فهى صفحات من الفكاهة النافذة ، يفقد الحوار فيها شيئا كثيرا بترجمته ، حوار بين الرسول بتعليقاته الواشية بخبرته فى الأدب العربى ، وبمزاجه ذى النبل والحسب العربى ، وبين الخادم المتعقلة (الحادة فى جوابها) التى تستعرض أيضًا معارفها الأدبية .

تعرض المقامة أيضًا أهمية كبرى ، ومع ذلك لم ينقلها ابن بسام لطولها – وهو شىء مؤسف ؛ لأنه يُتنبأ من خلال هذه الفقر غير المتسلسلة أنها أقصوصة رائقة ، وإن كانت مغلولة بأصفاد السجع التى لم يشأ المؤلف أن يطرحها ، وفى العمل أصالة وإبداع ، وفيه نفس شعرى لا يوجد مثله كثير فى الأدب العربى .

(*) ما بين معقوفتين لم ينقله المؤلف إلى كتابه ، وقد رأينا الإتيان به – المترجم .

المقدمة اليسيرة موجهة إلى شخصية ما لا نعرفها ، أو ببساطة هى موجهة إلى القارئ الذى يستوحى من الكاتب وعيا واضحا - بدون بذاءة - قيمة عمله الأدبى ، وفى شىء من التكريم بعيدا عما هو شائع بين كتاب هذه الحقيقة ، والشعور فى هذه المقامة - نظرا لنوعها - أقل من الذى يعتقد الكاتب أن فى ذرعه صنعه ، أو ما يجب عليه صنعه ، معبرا عنه تعبيرا جميلا فى سلسلة من المجازات متتابعة ، ولم يمنعه أن يشرع فى كتابتها واعيا أن هذا ليس مهمته ، لكن دون خجل من أن يتصدى لموضوع أقل من إمكانياته .

تسلسل المضمون - ولنسمه هكذا - فى هذا التتابع من اللوحات التى نزعت من فصول مختلفة من العمل أقرب إلى الإغماض ، هناك شخصية الفقيه ابن الحديد فى المقدمة ، وفى الفقرة الأولى أيضًا عندما رسم لنا المؤلف الجو إجمالاً ، ذلك الجو الذى بدأ يبسط فيه الحدث عندما أشار إلى زمنه : فصل الربيع الذى تبدأ فيه القصة .

وبدءا من هنا فإن العمل ضرب من المذكرات عن مشروع رحلة تقوم بها ثلة من الأصدقاء يقص أحدهم بروح شاعرية ، مرتجلا أحيانا أبياتا وصفية تصيب محزها فى المقدمة ، وفى الفقرة الثانية ليس ثمة إشارة إلى الفقيه الذى سوف يظهر من جديد فى المقامة ، إنه مشهد ريفى فى مزرعة يغمرها النور - نستطيع أن نخمن أنها قريبة من البحر المتوسط - الجزء الأول منه صورة لبدوى ذى هيئة وزى ، يعيش محاطا بكل وسائل الراحة ، كريم ، وعلى شىء من الفكاهة ، الجزء الثانى ضرب من حكاية لطيفة تميل إلى الخرافة ، يستخدم الديك الحكيم فيها الأخلاق العملية ، ويلجأ إلى إزجاء مشاعر الشكر لكى ينقذ حياته ، ولكنه لا يتردد فى اقتراحه أن يغيروه بتضحية أحد أبنائه ، تعرض هذه الفقرة أهمية خاصة ، لأنها المصدر المباشر لأحد فصول تحكيمونى ، كما سنرى حالا ، تأتى الفقرة الثالثة - ومن الممكن أن تعتبر شعرا وصفيا - يأتى بعدها فى الفقرة الرابعة وصف قرية آنة (قرية مستعربة) وفيها وصف للمرأة النصرانية يستخدم فيها الكاتب كل النعوت المطروقة فى الشعر ، يظهر الفقيه من جديد - فى ثلة الأصدقاء - لكنه لا يقوم بأدنى دور .

يتابع الفرسان السير فى الفقرة الخامسة حتى يصلو إلى أطلال كنيسة ، يشعر الكاتب مدفوعا - فى صدق - إلى تأمل هذه الطلول الدوارس ، وإن كان الشعر الذى يرتجله الراوى صدى لموضوع مطروق فى الشعر الجاهلى عن الرسوم الدواثر ، يسرى فى كل هذا المنظر شعور صادق فى ذرعنا أن نصفه بالرومانسية .

اهتـز الكاتب أمـام جدران الكنيسـة التى آضت أطلالا ، وعلى الرغم من بعض العبارات التى بها شىء من عدم احترام المسيحيين ودينهم ، والتى تقرأ بين السطور فى هذا المشهد ومشهد آخر من الضرب ذاته ، فإن التعاطف قد ألهمه بالفعل .

وعلى التوالى وفى الفقرة السادسة يقص علينا مشروع صيد فى شعاب عالية ، وهذه الفقرة هى أصعب فقر المقامة ، ولست على يقين تماما بتفسير بعض عباراتها تعبيرا أمينا ، وإن كنت قد استعنت بالدكتور محمود على مكى لمعرفته الواسعة بالأدب العربى ، والذى أقدم له شكرى الجم .

فى الفقرة الأخيرة يلتقون برجل من «إلتشى» (Elche) يمقت النصرانية ، ويريد أن يعتنق الإسلام ، وهنا يظهر الفقيه من جديد ليقوم بدور ضخم .

الحريزى مقلدا لابن الشهيد

عندما نشرت هذا الفصل فى سنة ١٩٦٠ كنت أجهل أن ثمة عملا موجودا فى اللغة العبرية للأستاذ شيرمان بعنوان «حول مصادر تحكيمونى ليهوذا الحريزى» والذى أشرت إليه فى الصفحات السابقة[١٦] ، وقد نشر فى مجلة طربيز Tarbiz ، والذى وقفت على خبره عبر إشارة مختصرة [١٧] ، ذلك المقال ألمح إلى مقال آخر للأستاذ : س . م . شتيرن S.M. Stern فى اللغة العبرية كذلك ، وفى المجلة ذاتها[١٨] ، وفيه دراسة للمصادر لإحدى مقامات تحكيمونى .

فى هذا المقال الهام - بعد عدة اعتبارات عامة عن نوع المقامات (وقد نقدها بعنف الأستاذ شيرمان : Schirmann[١٩]) - أذاع الأستاذ شتيرن اكتشافه لمصدر المقامة العاشرة (الديك الواعظ) فى تحكيمونى ، هذا المصدر فى المقامة ذات الفقر لابن الشهيد (الفقرة الثانية من ترجمتى) وقد درس شتيرن فى إيجاز شديد شخصية أبى حفص عمر بن الشهيد - مستندا إلى الذخيرة فقط ، قائلا إن بقية المصادر الأندلسية غير حاضرة لديه - مشيرا إلى أن مقامته لا تتفق مع النوع تماما[٢٠] ، وبعد اختصار كل فقرة فى سرعة (وهو اختصار ينبغى أن نشير إلى أن فيه بعض الأخطاء) يصل إلى التركيز على فقرة الديك وصلتها بالمقامة العاشرة للحريزى ، معطيا أساسين لنصوص المنظر ، مقارنا بينهما (فقرة ابن الشهيد فى ترجمتها العبرية) لكى يحكم القارئ بنفسه على حدود الصلة بين النصين : ليس ثمة فحسب باعث مشترك ، بل

واضح أن الحريزى كان أمامه النص العربى ، وإن كانت صنعته تعرض بعض الثغرات والتحريفات والتغييرات عن الأصل العربى .

يستخلص شتيرن أن «التشابه بين النصين كبير بما فيه الكفاية ، الأمر الذى ينفى أى شكوك حول هذه العلاقة ؛ فإن البناء القصصى بينهما متماثل ، وهما أيضا متماثلان فى التفاصيل ، وتفاصيل التفاصيل ، وفى إيجاز : إن لم نكن نرى مقامة الحريزى ترجمة صرفة ، فإنه يجب اعتبارها إعادة وضع ، لا تبعد عن المصدر الأصلى كثيرا .

هوامش

(١) انظر الذخيرة ١/٢ ص ١٨٠ – ٢٠٠ .

(٢) هنرى بيريس ، الشعر ص ٣٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٨ .

(٤) راجع ص ١٩٦ . سأذكر فى الهوامش التالية الإشارات إلى المصادر المذكورة فى أعلاه .

(٥) بالرغم من أن هذا المقال ظهر فى مجلة الأندلس سنة ١٩٦٠ ، وبالرغم من أننى حررت مقالا عن الكاتب نفسه لدائرة المعارف الإسلامية (جـ ٣ ص ٩٥٩) فإن راشيل أريى Archel Arié فى كتابها Notes Sur La Maqáma Andalouse (ص ٢٠٤) المنشور سنة ١٩٦٨ ما تزال تسمى الكاتب فى إشارة مختصرة أبا حفص عمر ابن شهيد ، قريب كاتب رسالة التوابع والزوابع ورفض الأستاذ شيرمان القراءة الصحيحة (ابن الشهيد) التى قرأها الأستاذ شتيرن (الذى استند إلى الذخيرة) مصرا على قرابته لابن شهيد ، مستشهدا بالأستاذ نيكل (سابقا هامش ٤) فى مقاله فى طربيز (المذكور سابقا ص ٢٧ هامش ٦٦) ص ١٩٨ وهامش ٥ .

(٦) الجذوة ص ٢٨٣ – ٢٨٤ .

(٧) البغية ص ٣٩٤ – ٣٩٥ ترجمة رقم ١١٦٥ .

(٨) راجع هنرى بيريس ، الشعر ص ٨٤ وليفى بروفنسال فى كتابه إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر . باريس ١٩٣٢ ص ٦٧ – ٦٨ .

(٩) الذخيرة ١/٢ ص ١٨٠ – ١٨١ .

(١٠) راجع الذخيرة ١/٢ ص ٢٣٩ ، وهذا النص موجود أيضًا مع بعض اختلافات فى كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب ، ط أولى ، الرباط ١٩٣٤ ص ٢٢٠ . ط ثانية بيروت ١٩٥٦ ص ١٩٠ .

(١١) الجذوة ص ٢٨٣ .

(١٢) راجع نفح الطيب جـ ٢ ص ٢٨٠ – ٢٨١ .

(١٣) اختصر الرواية هنرى بيريس فى كتابه الشعر الأندلسى ص ٨٣ ، واستخدمها أيضًا دوزى فى (بحوث جـ ١ ليدن ١٨٤٩ – جـ ص ١٠٥) وترجم بعض أبيات لشاعرنا (ورسم اسمه عمر ابن شهيد – Vosmains : (Omar Ibno - S'schohaid)répandent Une Pluie De Bi- enfaits, on ne Peut Vivre Heureux Que là où Vous Vous Trouvez,et Sans Vous les Jours De Notre Existence Se Traîneraint Tristement.

وفى الهامش يقدم ترجمة حرفية للبيت الأول الذى بدا له هكذا (جـ ١ ص ٢٥٦ – ٥٧ D'un Mauvais Goût Inexcusable) انظر الطبعة الثالثة حيث تظهر الترجمة مع تعديل طفيف ، والمقارنة فقط هى : "D'en Goût Que Peut-Être Nous Trouverions Contestable" وفى هذه الطبعة الثالثة يرسم دوزى اسم الكاتب صحيحا عمر بن الشهيد .OmarIbn-Aschahîd ولكن لم يلتفت إليه أحد .

(١٤) المغرب جـ ٢ ص ٢٠٩ – ٢١٠ .

(١٥) طوق الحمامة فى الألفة والآلاف لابن حزم القرطبى ، ترجمة من العربية إلى الإسبانية إميليو غرثيه غومث . مدريد ١٩٥٢ ص ٧٠ .

(١٦) سابقا ص ٢٧ هامش ٦٦ وص ٨٤ هامش ٥ .

(١٧) الخلاصة المذكورة (فى سفراد عدد ١٤ عام ١٩٥٤ ص ٢٠٥) أشار بها على الكاتب الأستاذ ف . بيريث كاسترو ، ووجدت صدى لدى مجلة الأندلس عدد ٢٥ عام ١٩٦٠ ص ٣٨٩ هامش ٣ ، ٤ .

(١٨) س . م . شتيرن Mqorah Ha - ᶜAravisel للحريزى "Mqamat Ha - Tarngol" فى طربيز ١٧ ، رقم ٢ (١٩٤٦) ص ٨٧ – ١٠٠ ، قرأ المقالين مفضلا تلميذى العالم وصديقى العزيز فيديريكو كورينطى – الذى أشكر له معاونته الكريمة – وترجم لى الفقر التى أشرت عليه بها ، وبما أن اللغة العبرية يعسر الوقوف عليها تقريبا إلا لغير المتخصصين فقد بدا لى ملائما أوجز الخطوط العريضة لمقال شتيرن .

(١٩) Schirmann. L- Heqer Mqorotav Šel Sefer Ha - Taḥkmoní En Tarbiz 23.3 - 4 (1952) p.198 Nota 5 .

(٢٠) شتيرن . مقاله المذكور ص ٩٠ ، وأستغنى عن بعض الاعتبارات الأخيرة لدى الكاتب عن استخدام الحريزى لنص ابن الشهيد ، وعن التوفيق الذى صنعه الأول ليصبها فى قالب المقامة الكلاسيكية .

من رقعة خاطب بها بعض إخوانه يقول فيها

أبثك أحدوثة عجب تضحك سنك ، وتطبق بالطيب وقتك ، فما زالت النوادر مستغربة لا سيما نوادر علية الكتبة : وجهت فلانا إليّ بكتاب يخصك ما تضمنه ، وكنت – علم الله – حين موافاته منزلى حليف ألم ، قد أطلت عليه التململ ، وأسهرنى ليله الأطول ، وقد انفض عنى من كان معى رجاء غفوة أستشفى بها ، فقرع الباب قرعا منكرا يتبين الحرج فيه ، ويظّهر الضجر فى تتاليه ، فتداخل الخادم رعب وقالت : هو خطب ! ثم خرجت على تحامل بروعة جنان ، ولجلجة لسان ، ومنطق جبان ، تنقل قدمها إليه على وجل «كما يمس بظهر الحية الفرق» ثم قالت : من الرجل ؟ فأنقض رأسه نحوها وقبض على لحيته بيمينه ، وأحد النظر إليها وتنهد وقال : أواه على طموس رسم الأدب ! وتمثل :

إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ، ولكن لا أرى أحدا

ثم أقبل على الخادم وقال : يا لكعاء ! كسبت فى مئونة العيش معرفة الحلو والمر ، والخشن من اللين ، وفى كل ذلك لم تحفظى بيتا واحدا من الشعر يحسن به أدبك ، ويحجرك أن تقولى من الرجل ! أين أنت يالكعاء من قول أبى تمام :

يحميه لألاؤه ولوذعيته من أن يذال بمن أو ممن الرجل

ولكنك ما علمت ، حرجة الصدر ، قلبك فارغ إلا من الغفلة ، ولحظاتك بليدة على التفصيل والجملة ، أقسم لو أنك امرأة من الأزد أسد الباس ومقاديم الناس ، لرأيت لألأة الأزدية فى أسرة وجهى ، ولولا تحفزى للأمر الذى وردت له لكان لى ولك شأن ، ولأعطيتك قانونا فى الفراسة والزجر ، ونبذت إليك بعلم من علوم الدهر ، لا يلتبس عليك معه الشريف أيام عمرك . يا هذه قولى لرب المنزل يترمرم لإنفاذ هذا الكتاب ، فقالت له الخادم : عافاك الله إنه عليل ، ومن وصبه ثقيل ، وقد برح به السهر ، ولان

لغفوته السمر ، ولابد من التخفيف عنه . فجرجر جرجرة العود الدبر ، وتزيد من الحرج والضجر ، وقال : بسل علينا معشر الأزد أن نفرى ولا نخلق ، أو نتوجه فى أمر فلا نحقق ، يا هذه ليس هذا إيوان كسرى فنتزود لاستخراج الحاجة به المال والصبر والعقل ، ومن العجب وقوفى معك منذ اليوم أضرب لك الأمثال ، وأصرف المقال ، وأنت لاهية عنى ، لا يعنيك أمرى ، أترين صاحبك شرب من الخمر أقداحا ، وسمع نوبات ، فلما اعتدل مزاجه ، وتوارت وجوه النوائب عنه ، قال للدهر أدر دوائرك فإنى لا أعبأ بك!؟ قد علمت علته ، أقسم لو أن به ألف علة ، تكون حياته من جميعها مختلة ، لينفذن هذا الكتاب ! قالت له الخادم : ويحك ما أجفاك من وافد الأزد ! أين منك رقة الحجاز وفصاحة نجد ؟ ما أقبح هذا العقوق ، بمن شرب ماء العقيق ، وأسوأ هذا الأدب ، ممن ينتهى إلى ذؤابة العرب ! فقال : يالكعاء ، إنك لتجادليننى عن نسبى ! وحياة ما نقلته من الخطى ، وتجشمته من البيداء ، لينفذن هذا الكتاب ، أو لأشهدن عليه بالعصيان والتكاسل ، والتوانى والتثاقل ، فمثلى لا يرد إلا بحزم ، ولا يصدر إلا عن فضل ، فقالت له الخادم : ما أسوأ تقديرك للأمور ! لئن كان مخمورا خمر وصب ، فهؤلاء الشهود معهم شرب ، وعندهم طرب ، وصاحب المدينة منه بنسب ، وعلى صلة سبب ، فأين تذهب ؟ فشمخ بأنفه ، وكسر من طرفه ، ومدد الزفرة ، وردد التلهف والحسرة ، ثم قال : أف للدنيا فما تزال تعيننا بمثل هذه الهناة ! فلما شد على نسعه للانصراف أقبل على الخادم فقال :

قفى قبل التفرق يا ضباعا ولا يك موقف منك الوداعا

أما إنك لولا أن تكونى باهلية الضئضئ لعرفتك ، ولكن سأودع عندك أرجا يدل على موقفى فى هذه البحبوحة . أنا العتكى الحسب والنسب ، وذو الهمة والأدب ، فمن سألك فقولى ما شهدت ، وحدثى عما عاينت ، وما أراك تجدين ظاهرا تقيمين به فرض الثناء على ، اذهبى لا محفوظة ولا مكلوءة ، ثم انحدر فما علمنا ما كان منه .

وله من مقامة حُذفت بعض فصولها لطولها

قال فى صدرها :

إن صفحة الكتابة محنة من المحن ، ومهنة من المهن ، والسعيد من خدمت دولة إقباله ، والشقى من كانت رأس ماله ، والعاقل من إذا أخرجها من مثالبه ولم يدخلها فى مناقبه ، لاسيما وقد تناولها يد كثير من السوق ، وباعوها بيع الخلق ، فسلبوها تاج بهائها ، ورداء كبريائها ، وصيروها صناعة يكاد الكريم لا يعيرها لحظة ، ولا يفرغ فى قالبها لفظة ، إذ الحظ أن يعثر الكرام إذا ولى الأعلاج ، وأن تستنعج الآساد إذا استأسدت النعاج . غير أنه من وسم بسمتها ، وظهر فى وسمتها ، فنبير مجهول مكانه ، ولا مسلم له كتمانه ، وما عسى أن يصنع بذى مكانة وحسب ، إذا اتفق يوم سرور وطرب ، ورغب رغبة كريم ، أن يؤرخ له بمنثور ومنظوم ؟ أقسم لو كان وجهه فى صفاقة نعله ، أو وقاحة حافر بغله ، لما وسعه غير الإسعاف على حكم الإنصاف ، وإلا لزمه اسم التبريد والجمود . وبهذا السبب دفعنا إلى النصب فبما تسمعه ، وربما تستبرعه ، ولئن مرت بك كلمات محاليات ، تنظمها سلوك هزليات ، فإنما هى أوصاف طابقت موصوفاتها ، وحلى على أقدار محلياتها ، والبليغ كالجوهرى واجد التعب ، فى نظم الدر أو المخشلب ، وكالصائغ واجد العناء فى سبك الصفر أو الفضة البيضاء ، وكالعقاب واجد الانهواء ، على الصفر أو المكاء ، والعاقل من برز يوم السرور فى زى الأعياد ، ويوم الحزن فى ثياب الحداد ، وسيان فى الفجاجة والبرد ، من جد عند الهزل أو هزل عند الجد ، ولا أوضح فى القياس من حركات الناس كحركات الشموس والأقمار ، فى الفلك الدوار ، كلما انتقلت فى المنازل والبروج ، عدلت بالأسطرلاب والزيج ، ووقف على حقائقها ، بثوانيها ودقائقها ، محصورة بالحدود ، فى القريب والبعيد ، كحركات الفقيه ابن الحديد ، فإن أيامه على مناكب الأيام أردية شباب ، وفى مفارقها تيجان نخوة وإعجاب .

وفى فصل منها : [١] (*)

فدونكها عذراء ، محجلة غراء ، كما رفع عنها سجف الإبداع ، وأبرزت فى كاس الاختراع ، تنظر بعين الغزال روع ، وأويس بعدما أطمع ، نعم ! اتفق من الربيع وقت

(*) هذا الترقيم من وضع الأستاذ جرانخا فى ترجمته المقامة إلى الإسبانية – المترجم .

حلول الشمس في الحمل ، وقام وزن الزمان واعتدل ، وأخذ آذار على ما اعتاد ، فحلى الوهاد والنجاد ، وخلع على ظهور المروج ، ضروب الدبابيج ، وأثقل صدور الأشجار ، بحلى النوار ، وأطبى نفوس الأطيار ، بنضارة الثمار ، فبعثت أشجانها ، ترجع ألحانها ، فما شئت من رمان تملأ كف العميد من أمثال النهود ، تحت القلائد والعقود ، وتفتق عن أمثال الجمر ، إن وصفت فكاللثات الحمر ، أو ارتشفت فكالرضاب الخصر أو الخمر ، ولما انتظمت للزمان هذه المحاسن ، حنت نفس الفقيه بسيادتها ، إلى كرم عادتها ، من الإحسان إلى الاتباع ، والتسلية لنفوس الألاف والأشياع ، فلما صفق الديك وصرخ ، واستغفر كل عبد منيب ربه وسبح ، وهم بشن الغارة كمين الصبح من المشرق ، واهتز الفجر اهتزاز الرمح في يمين الأفق ، أطلق لسانه الفصيح ، بالتهليل والتسبيح ، ثم دعا بماء طهور ، وأفرغه نورا على نور ، فوضأ وجها وضاء ، يملأ العيون بهجة وسناء .

وفى فصل منها : [٢]

وملنا إلى منزل بدوى ، ذى هيئة وزى :

له منزل رحب عريض ، مزرب	بأعواد بلوط وطوج مفتل
ترى بعر الآرام فى عرصاته	وقيعانه كأنه حب فلفل

فهش وبش ، وكنس منزله ورش ، وصير عياله إلى ناحية ، وجمع أطفاله فى زاوية ، وجعل يدور كالخذروف أمام الصفوف ، يتلقى الواحد منا بعد الواحد ، يأخذ بركابه ، ويكشر عن نابه ، ويتمثل :

أخذى كذا بركاب الضيف أنزله	ألذ عندى من الاسفنج بالعسل
أو من رغائف كانون ملهوجة	أورائب بقرى جيد العمل
أو من خوار عجول فى مسارحها	أو من ركوب الحمير الفره فى الكفل

ثم مال بنا إلى بيت مكنس ، منوع مجنس ، قد حلله حصرا بلدية ، وغشاه بسطا بدوية ، ومدّ فيه شرائط وحبالا ، كأنه يريد أن يخرج خيالا ، وعلق منها غلائل وملاءات ، وهمايين وسراويلات ، وكم شئت فى خرق معصفرة ، وعصائب مزعفرة ، حتى المقنعة

والخمار ، والدلال المستعار ، وقد اتخذ فى الحائط كوة وثانية ، وملأها حقاقا وآنية ، وأودعها من عتاد العروس فاخره ، ومن طيب البادية أوله وآخره ، فقلت : يا صاحب المنزل ، هنيت وهنيت ، لقد أوتيت وأوتيت ! وجعلت أرفق عن صبوح ، وأقول " متى كان الخيام بذى طلوح " . من أين للبداوة بهذا الرونق والطلاوة ، وكيف حتى أغرت على حانوت العطار ، ومتى نقل سوق البز إلى هذه الدار ! ؟ لقد قرت بك الأعين ، وسرت الأنفس ، هذا زى العروس فأين العرس ؟ فضحك البدوى ملء فيه ، وتوسمت الازدراء فيه ، وأنشد :

يا أخى نحن على	أنا نتاج بدوى
سادة ناس لنا فى	هذه الدنيا دوى
عندنا إن جاء ضيف	شبع جم ورى
وسرير حشوه	ريش الفراريج ، وطى
وكرامات كثيرات ،	وهيئات وزى

ثم قام من مكانه ، ودعا بصبيانه ، وأغراهم بديك له هرم ، ليذبحه فى طاعة الكلام ، فأجروه لأمهم الهاوية من زاوية إلى زاوية ، حتى سقط الديك سقوط طليح ، جسما بلا روح ، فأقبلوا إليه ، متهافتين عليه ، وهو يضطرب اضطراب المخنوق ، ويستغيث بالخالق والمخلوق ، واتفق لفرط خنقه ، ومؤلم تقلقه ، أن عض على أيديهم عضة ، وانتفض منهم نفضة ، وصعد فى بعض الجوائز ، وحمد الله حمد الفائز ، وتمثل :

إذا غرقت ببحر	من الردى فياض
فلا يكن بهلاك	عليك ظنك قاضى
فليس فى كل وقت	سيف المنية ماضى

وحان وقت الظهيرة ، فصفق بجناحيه ثنتين ، وصرخ صرختين ، واقتدى به المؤذنون ، وتجمهر المؤذنون ، حتى إذا قضيت الصلاة استصرخهم فأصرخوه ، وتواثبت إليه السادة والوجوه ، فقال لهم الديك : أيها السادة الملوك ! فيكم الشاب متع بالشباب ، والأشيب نور شيبه مع الكواكب والأتراب ، وقد صحبتكم مدة ، وسبحت الله

على رءوسكم مراراً عدة ، أوقظكم بالأسحار ، وأؤذن بالليل والنهار ، وقد أحسنت لدجاجكم سفادا ، وربيت لكم من الفراريج أعدادا ، فالآن حين بلى فى خدمتكم تاجى ، أنعى إلى دجاجى ، وتنحى الشفرة على أوداجى ؟ وحين أدركنى الشيخ ، يمزق لحمى ويطبخ ؟ ! ياالكرام من ذل هذا المقام ! وجعلت دموعه تسفح من دمه ، والحزن يطبق على فمه ، ثم غشى عليه ، فاجتمعت البداوة إليه ، يضربون وجهه بالماء ، ويخلصون له فى الدعاء ، ثم أفاق من غشيته ، وأنشد :

علام يقتل شيخ ... من كل ذنب برى
محقق ، متحر ... موحد ، سنى
هل نص هذا الكتاب ... أو قال هذا نبى ؟
لا ذنب لى غير أنى ... مؤذن بدوى .

فرقت له أنفس القوم ، وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم ، فقال : ويحكم إن هذا الديك ذو فخذ وصدرة ، وقد أصابتنى عليه ضجرة ، ولى فى ذبحه سر ، ولا بد أن تزين به قدر ، وتضرم تحته النيران ، ويشبع من لحمه الضيفان ، أما ترونه قرة العين والقلوب ، سبيكة لجين محكمة التذهيب ! ؟ وتمثل :

ومن شيمتى مهما تزين منزلى ... بضيف أن أقريه بأحسن ما عندى
لو أن دمى خمر لرويته به ... ولو صلحت كبدى شويت له كبدى
بذلك أوصانى أبى مذ عقلته ... وقد كان أوصاه بذا قبله جدى .

فقال الديك : لا أكذب ،الحق طريق مستبين ، واتباعه مروءة ودين ، أما إنه لعلى خلق عظيم ، كريم ابن كريم ، غير أنه لؤم فى أمرى وأفرط ، وغلط ما شاء أن يغلط ، أما علم أن هرمات الديوك ، ليست من مطاعم الملوك ، وأنها بالأدوية ، أشبه منها بالأغذية ؟ وأقسم لو اتخذ برمة فى فؤاد مهجور ، ووضعنى من مثله على تنور ، لا قضى بى حاجة ، ولا عدم منى نيوءا وفجاجة ، وإن له فى بنى مالا يجده فى ، من طيب المشم ، ولذة المطعم ، والتواليد لأحمر ما يكون من الدم ، وأنى كالفروج اسفيداباجا ، لمن أراد أن يعدل مزاجا ؟ ! فزكى قوله ، كل من حوله ، لم يألوه تعظيما ،

واتخذوه من ذلك اليوم حكيما ، وصرف البدوى من ألطافه ، ما أحسن به قرى أضيافه ، وختم نوبة بره ، بالرغبة فى بسط عذره ، فسمعنا منه ، ورحلنا سحرا عنه .

وفى فصل منها : [٣]

ولم تزل الجياد تمعج بكماتها ، والشمس تنتقل فى درجاتها ، حتى أشرفنا على عين كالدينار ، كأنما هندست بالبركار ، ذات ماء ريان من الشنب والخصر ، وحصباء كالأسنان ذوات الأشر ، وقد حف بها النبات حفيف الشارب بفم الأمرد ، وتزينت بخضرة كالمرآة الصقيلة طوقت بالزبرجد .

ومنها : [٤]

فأصغيت فإذا بصوت ناقوس ، فى دير قسيس ، وقرية آنة ، كلها حانة ، دار البطاريق ، وملعب الكاس والإبريق ، سائمتها الخنازير ، وحياضها المعاصير ، ومياهها الأنبذة والخمور ، وشكلها مثلث مسطوح ، هندسته حواريو المسيح ، نباتها غصون من قدود ، تهتز فى أوراق من برود ، وتثمر رمانا من نهود ، وتفاحا من خدود ، وعقارب من أصداغ ، وأفاعى من أسورة وعقود ، وفيها مدام من رضاب ، وسقاة من كواعب أتراب ، وغيد لمهوى قرط ، وارتجاج لكثيب فى مرط ، وجولان لنطاق ، وغصص لخلخال فى ساق ، وخنث فى ألفاظ ، ومواعيد بألحاظ ، وقلوب تكلف وتشغف ، ونفوس تنشأ وأخرى تتلف ، فلما أكثر محدثنا بحضرة الفقيه ، من هذا التشبيه ، ومن هذه المحاسن ، المحركات لكثير من السواكن ، قطبنا له وجوه الاستكراه ، وعضضنا له على الشفاه ، فبينا نحن كذلك نكثر لغطا ، ونرى الحلول بالمسيحيين غلطا ، إذ نظرنا إلى اطراد صفوف من أعطاف خنثة ، وخصور هيف ، وشموس وأقمار ، على أفلاك جيوب وأزرار ، لا سيوف إلا من مقل ، ولا درق إلا من خجل ، ولا عارض إلا من خلوق ، ولا صناعة غير تخليق ، ولا اسم غير عاشق ومعشوق ، فتشفع القسيس بحسن خدودهم ، وأقسم بنعمة قدودهم ، إلا أجزلتم المنة ، وثنيتم الأعنة ، تعريجا إلينا ، وتحكما فى المال والولد علينا ، فكرمت الشفاعة ، وقلنا السمع والطاعة ، وجلنا جولان الزنانير ، على هيف الخصور ، ونغص بما بقى فى الطريق ، غص الدماليج بخدال السوق ، حتى وافينا الباب ، وأنخنا الركاب ، وتولى تولى الحر ، ضروبا من البر ،

وقضانا من الإكرام نافلة وفرضا ، وشددنا الجياد عنه ركضا ، وسرنا حتى رفع لنا فى طريقنا جدر ، فإذا كنيسة عارية الأطلال من الجمال ، إلا تعلة التوسم ، للتخيل والتوهم ، كالثوب الكريم أخلقه ابتذاله ، أو كخد الأمرد تغشاه سباله ، فهيج ذكرا ، وأحد فكرا ، فأنشدت :

وكنيسة أخذ البلى منها كما أبصرت فيئا فى مغار ينهب

نمت عليها فى السفارة نفحة من ماء كرم كان فيها يسكب

أهوى إليها بالمطى تحيل منا برىء والأمانى تكذب

فتواقف الركبان فى عرصاتها كل بها متحير ، متعجب

أنى تأتت لابن آدم قدرة حتى استقام ، وتم ذاك المنصب ؟

ومن أى أرض كان رائع مرمر كسواعد الغزلان فيها يجلب ؟

كم صاد إبليس بها من تائب بحبائل ألقى بهن ترهب

وكم ابتنى القسيس فيها منبرا من جؤذر ، وبدا عليه يخطب

سقيا لها من دارغى لم يزل فيها كريم بالملاح معذب

كلا ، وما زالت نجوم مدامة فيها بأفواه الندامى تغرب

بئس المصلى إن أردت تعبدا فيه ، ولكن كان نعم المشرب .

ثم أغذذنا سيرا ، وكأننا ننفر طيرا ، حتى نظرنا إلى السائمة تسرح فى مروجها ، كالعذارى تميس فى دبابيجها ، كلأ نضير ، وماء نمير ، ومازلت أروى هناك بالرائب والميس ، حتى كاد كيانى ينقلب إلى كيان التيس ، ثم رحلنا وتذكرنا الطراد ، فمشت الجياد ، وتواثبت آساد ، واستعد ببازٍ وكلاب ، فإذا بحر من برك يخرقه سفين من برك ، وفى السيور صقور إذا نظرت ، وليوث إذا جردت ، تنظر فى أمثال الدنانير ، وتتخطف بأشباه المرهفة الذكور ، فأرسلناها إرسال سهام الأحداق إلى قلوب العشاق ، فلم نر إلا ريشا محلوجا ، ومنسرا يحسن تودیجا ، ووردنا ماء فى رقة النسيم ، ولذاذة بنت الكروم ، فشربنا وطعمنا ، وقرينا سباع الفلاة ، مما فضل عن الكماة ، ونقشت على مرمرة بيضاء ، ساعة وردنا ذلك الماء .

يارب مـــاء عـــازب مـــجـــه ... مـــزن هـزيم الودق فى سـبـسـب
زبـرجُـــــد جلـلـه مكـشــــه ... غـــشـــاء ديبـــاج مـن الطحـلـب
إن كـان فـيمـا قـد مـضى موردا ... فـللـعـطاش الأســـــد والأذؤب
بـاكـــرته مـع كل ذى هـمـــة ... لا يرتـضى الأفــلاك عن مــركب
ولـغط الـطيـــر بأرجـــائـه ... كلـغط الصـبـيـــة فى المكتب
فـــانقـض من أيمـاننـا كـــوكب ... ذو نــاظـر أنور مـن كـــــوكب
مـكحـل الآفـــاق ذو منســـر ... يسـتـرزق الرحـمن من مـخلب
فـاسـتـشـعـر الطيـر هروبا ، وهل ... عن نازل المقـدور من مـهـرب ؟
فـصـار مـا أوسع صـحـبى قـرى ... وفـــاض فى الأبعـد والأقـــرب
صـيـد لـعـمـرى لم يعـبـه سـوى ... أن لم يكن نـقـلا عـلـى مـشـرب .

ثم لم نزل نسرى سرى النجوم فى الدياجى ، إذ تلقانا شاب كما ذهب عقيق خديه ، ونم شاربه بالتذكير عليه ، متقلد حسام كأنما طبع من لحظه لا من لفظه ، على جواد ظمآن الأسافل كخصريه ، ريان الأعالى كردفيه ، تستعيذ عيون البررة فى النظر إليه ، وتزدحم أطماع الفجرة حواليه :

ذو مُـقلة شـــهـــلاء رومـــيـــة ... وذو لســـــان عـــربى مـــبين
قلـت وقـــد عـــيب بتـثـلـيـثـــه ... مـــقـــال ذى رأى وعـــقـل رصين
طلـعـتـــه الـدنيـــا ، وقـل مـــا ... يجـــمع لـلإنســـان دنيـــا ودين .

فلما بلغنا ، قبل عـرف جـواده ، وعـبراته تنسكب عـلى نجاده ، قلنا : مالك ، لا أبالك ؟ فقال : منفلت من السجن ، ، وآبق من الحصن ، وعائذ من ظلمات الغواية ، بنور الهداية ، ومن ذل عبادة الأوثان ، بعز عبادة الرحمن ، ولى خبر أريد أن أقصه ، ويمتن الفقيه وفقه الله أن يسمع نصه ، فخرج إليه الإذن ، وقيل له ادن ، فقضى فرض التحية ونافلتها ، ثم قال : أيها الفقيه ، للأشياء غايات تنتهى إليها ، ومقادير تجرى عليها ، أما والخلاق العليم ، والفاطر الحكيم ، الذى أسعد قوما بالهداية وأثابهم عليها ،

وأشقى آخرين بالضلالة وعذبهم بها لقد أنحلتنى عبادة الطواغيت فعبدت الصليب ، وقرعت الناقـوس ، وفعلت كل ما قـرت بـه عينى إبليس ، قدر لم يكن ليخطئنى ولا يتخطانى ، إلى أن استنقذنى ربى وهدانى ، وأنا أشهد أيها الأشهاد أن الله إله واحد ، ليس له ولد ولا والد ، كان ولم تكن الأكوان ، ولا أرض ولا ماء ، ولا دخان ، مخترع الكل ومُنشِئه ، ومعيده ومبدئه ، له المثل الأعلى ، والأسماء الحسنى .

الفصل الرابع

المقامة الدوحية لابن عياض

لكى نقف على تطور فن المقامة فى الأندلس لا يكون من السرف أن نخصص صفحات قلائل للنصوص الموجزة التى احتفظ لنا بأحدها ابن سعيد المغربى فى كتابه «المُغرب» .

كاتب هذه المقامة هو محمد بن عياض ، عاش فى القرنين السادس والثانى عشر فى بدايات تبسنم الموحدين السلطان حسب ما نقله إلينا ابن سعيد ذاته بدون تدقيق كثير [١] .

نقل لنا ابن الأبار فى «التكملة» اسمه كاملا : محمد بن عيسى بن عياض [٢] وكلا الكاتبين متفق على كُنيته « لأن الكُنية المعروفة لمن يدعى محمدا هى أبو عبد الله» .

يصنفه ابن سعيد فى « المغرب » بين علماء لبلة ، بينما يضعه فى كتابه « رايات المبرزين » فى القسم المخصص لقرطبة . [٣]

أما الشاعر المصنف المرسى صفوان بن إدريس الذي توفى فى نهايات القرن الثانى عشر فيدعو الكاتب أبا عبد الله بن عياض بالقرطبى [٤] .

وقد دون ابن الأبار النسبتين : القرطبى ، واللبلى ، قائلا : ربما أخذ اسمه من المدينة التى عاش بها ، تلك ظروف يحدثنا عنها - فى الواقع - ابن عياض نفسه فى النص القصير الذى وصل من مقامته .

المعلومات التى فى حوزتنا عن هذا الكاتب نادرة جدا : كان نحويا ، أديبا ، مصدرا للإقراء فى قرطبة ، فى صدر دولة بنى عبد المؤمن ، كما يقول ابن سعيد ، وإنه كان متقدما فى الأدب ، ولاحقا بأفذاذ الشعراء والكتاب ، حسب ما يقوله ابن الأبار .

ينسب إليه ابن سعيد المقامة المعروفة بالمقامة الدوحية التى تجلّى فيها تأنقه فى الأسلوب ، ومعرفته الواسعة ، وموهبته الفطرية باعتباره كاتبا ، وقد عرفت المقامة كذلك باسم كاتبها : «المقامة العياضية الغزلية» (٥) ، يشير هذا النعت الأخير إلى أنها ذات موضوع غزلى ، وهو شىء لا نكاد نعرفه بالدقة ؛ بسبب الأسطر القليلة التى وصلتنا من نص المقامة .

وللشهرة التى لابد أن يكون قد حظيت بها شخصية معاصرة فى ذلك العهد : محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن عياض المخزومى - وبدون أية أهمية بالنسبة لنا - نسبت إليه هاته المقامة مع مرور الزمن ، وبدون حجة واضحة ، إلا أن لقب العياضية كان من المحتمل بالنسبة له أكثر شهرة ، ولمحو هذا الخطأ تصدر للأمر مترجم الاثنين ابن الأبار فى التكملة بمقال مخصص لهذا الأخير قائلا : إن نسبة المقامة العياضية له خطأ ، إنما هى لمحمد بن عيسى بن عياض القرطبى (٦) ، بيد أن حاجى خليفة فى «كشف الظنون» ارتكب الخطأ بتسميته المقامة بالروحية بدلا من الدوحية ، وفى النسبة : اللبلى ، ليقول الليثى ، وهى نسبة يراها هو أكثر ألفة (٧) ، وعن هذه المقامة تقول صديقتى العزيزة راشيل أريى : Rachel Arié (وهو كل ما قالته) عن شرف عياض نفسه (قاضى سبتة المعروف) كتبت رسالة مديح : المقامة العياضية الغزلية بقلم قرطبى عبد الله (هو) محمد القرطبى اللبتلى ، وهو شىء لا أساس له (إنها تعرف الخبر اليسير فقط الذى أورده ابن الأبار فى التكملة) دون ملاحظة سبب التسمية (العياضية) ؛ لأنه كان اسم المؤلف - ابن عياض - الذى أغفلته لكنها تيقنت مع ذلك من الخبر .

يشغل نص المقامة الدوحية أو المقامة العياضية الغزلية الوارد فى المغرب أحد عشر سطرا فقط فى النص المطبوع ، هى بالدقة مطلع المقامة ، وليس فى ذرعنا حين يصمت ابن سعيد ومؤرخون آخرون أن نعرف طول هذه المقامة ، ولا أن نقف على فحواها ، نحاول - فى حدود الطاقة - أن نحلل ما بقى من المقامة ، وهو شىء ليس بهين ؛ نظرا للأسلوب المتأنق ، الغامض عمدا فى هذا الاستهلال ، المقامة هى رواية " ميزان الأشواق ، ومعيار المحبين والعشاق " (٨) وهو عنوان مسجوع مختار ليُدل به الكاتب بمهارته فى مادته ، نقف من خلال أسلوبه المعقد المرصع بأسماء وصفات على بداية

مقامته التى بدأت من قرطبة ، جاعلا حجته فى ذلك الحب من طرفه وهو لقينة حسنة المنظر ، وهو شيء – من المحتمل – لا يعدو أن يكون رمزا .

المقامة عبارة عن هروب شرع فيه فى منتصف الليل (وهو رمز متبوع برموز أخرى) ، رحلة طويلة جدا دون أن يصادف محطا ينزل به فى أى مكان ، يعتمد هذا الوصف على مصطلحات جغرافية حسية ، يتخللها أو يتشابك بها مصطلحات من جسد المرأة ، الأمر الذى يشكل أيضا تأويلا لتقلبات الجد التى تقف ضده فى النهاية دائما ، يشعر المؤلف بندم – جاءه متأخرا – لهجره مدينته الصغرى ، لكنه لم يحاول العودة إليها ؛ لأنه تعلق بهدف مأمول فى مدينة الحمراء " البلدة الحمراء " وإن كان استعماله مجازيا ، إلا أنه العنصر الواقعى الوحيد الذى استخدمه الشاعر : إنه يعنى لبلة ، يسميها الحمراء مثل حمراء غرناطة حسب ما ندرى فى شواهد معروفة جيدا [٩] ، وهى النسبة التى اقترنت بالشاعر : اللبلى .

وصل الكاتب الصعلوك إلى المدينة ، وطفق يبحث كما بحث فى شوق عرضا وطولا فى جولانه الدائم عن أمير يبسط له راحته .

هكذا ينتهى هذا الجزء من المقامة النثرية التى اختارها ابن سعيد ، وفى «المغرب» كما فى «رايات المبرزين» يتبع المقامة بعض أبيات من الشعر يقال إنها بعض من المقامة نفسها ، هى عبارة عن بعض أبيات : ست أبيات فى المغرب وثلاث فى الرايات فقط ، ربما تشكل جزءا من المقامة – كما يؤكد ابن سعيد – لكن – على كل حال – لم توجد فى سياق النص الذى فرغنا من تحليله الآن ، بين هذه الأبيات المختارة لكاتبنا فى « زاد المسافر » بيت واحد من عشرة أبيات حيث انتزعت باقى الأبيات ، ولم يعط صفوان بن إدريس – وهو متأخر قليلا عن ابن سعيد – أدنى إشارة إلى أن الأبيات تشكل جزءا من المقامة [١٠] ، ولذا استغنى عن ذكرها فى هذا المقام .

هوامش

(١) المغرب جـ ١ ص ٣٤٤

(٢) التكملة جـ ١ ص ٢٣٣ ترجمة رقم ٧٦٢ .

(٣) رايات المبرزين . النص العربي ص ٤٦ ، والترجمة الإسبانية ص ١٨٩ - الفقرة ٦٢ .

(٤) زاد المسافر ص ٩٥ ترجمة رقم ٤٨ .

(٥) الخبر رواه ابن الأبار ، التكملة المكان المذكور سابقا .

(٦) التكملة جـ ١ ص ١٥٥ ترجمة رقم ٥٤٤ .

(٧) حاجى خليفة . كشف الظنون . طبعة . ج . فلوجيل (Lexicon Biblio = Graphicum et Encyclopaedicum, leipzig - London, 1835 - 1858), 6,65,N°12.723. واستشهد بها غرثيه غومث فى رايات المبرزين . الترجمة . ص ١٩ . هامش ٤٢ .

(٨) R. Arié, Notes sur Lamaqáma Andalouse. pp. 205 - 206. Ynota 28. ويرجع اللبس أيضا إلى ما ذكرته قبل ذلك (ص ٢٠٤) عن مقامة أخرى (لم تصل إلينا) كتبها فى مدح القاضى عياض أديب وادى آش محارب بن محمد بن محارب (ليس محمد بن محمد) ويرجع الخبر أيضا إلى ابن الأبار (راجع التكملة جـ ١ ص ٤٠٧ ترجمة رقم ١٧٧٣) ، عن محارب بن محمد انظر ابن الأبار نفسه فى كتابه تحفة القادم ، فى المشرق (٤٩) عام ١٩٤٧ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ ، حيث يوجد خمسة عشر بيتا فى قصيدة فى مدح عياض مأخوذة من المقامة .

(٩) E. Lévi Provençal, La Péninsule Ibérique au Moyen âge d'après le كتاب الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى : ليدن سنة ١٩٣٨ . الترجمة ص ٢٠٣ ، هامش ٤ .

(١٠) زاد المسافر ص ٩٥ ، ٩٦ ، الأبيات الستة فى المغرب بهذا الترتيب ١ ، ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٩ ، ١٠ كما جاء فى زاد المسافر ، وترتيب الأبيات فى رايات المبرزين ١ ، ٢ ، ٩ ، وهذه الأبيات الأخيرة ترجمها غرثيه غومث فى أعلام ص ١٨٩ .

فقرة من مقامته

قال ميزان الأشواق ومعيار المحبين والعشاق :

نبت بي معاهد الأحباب ، في ريعان الشباب ، لقيْنة أزكت نيرانها ، وألقت بمسقط الرأس جرانها ، فامتطيت الليل طرفا ، وفرقت السنان طرفا ، وجعلت أمسح الأرض نجدا ووهدا ، وأستطعم الآمال صابا وشهدا ، كالعنز لا يستقر بمنزل ، ولا وجد عن رحلة بمعزل ، أصعد من حضور القيعان ، إلى روادف الرعان ، وأنحدر من متون الضباب ، إلى بطون اليباب ، حتى عجمتني أنياب النوائب ، وتقاذفت بي صدر المشارق إلى أعجاز المغارب ، وقد حللت من الاغتراب بين الذورة والغارب ، وكنت أكلف بالبلدة الحمراء كلف الكمي بالصعدة السمراء ، وأحن إلى جوارها ، حنين الناقة إلى حوارها ، للذى اشتهر من حسنها وطيبها وخصبها ، واختيالها فى حلل شربها وعصبها ، فهدانى إليها حادى الاغتراب ، وتطاوحت بى إليها طوائح الاضطراب ، ولا أمل إلا اعتلاق خل ظريف ، والإصغاء إلى نبأ طريف ، وأنشد فيها :

عربد بالهجر والعتاب	نشوان من خمرة الشباب
طفا على ريقه حباب	فاحتجب الخمر بالحباب
أنكر إلا سقام طرف	وأي سيف بلا ذباب
إن أنا لاحظته توارى	من دمعة العين فى حجاب
أبصرته جدولا وورقا	من دمع عينى وانتحابى
لم تستبق سلوة وحب	إلا وطرف السلو كابى (*)

(*) أسقط المؤلف ترجمة هذه الأبيات إلى الإسبانية ، وقد رأينا إضافتها ، لورودها فى الأصل العربى - المترجم .

الفصل الخامس

وصف القلم لابن غالب الرصافى

فى الفصل الأول من هذا الكتاب ترجمة لرسالة السيف والقلم لأبى حفص بن برد الأصغر ، ولدى الإشارة إلى الاحتذاءات التى اعتقدت وجودها لهذه الرسالة المذكورة فى الأدب العربى – وكذلك فى الأدب العبرى – كنت أعنى نصا للشاعر ابن غالب الرصافى [1] سوف نراه الآن .

موضوع السيف والقلم – فضلا عما سجلته هناك فى الفصل المذكور – يبدو فى الأدب العربى بكثرة ملحوظة ، سواء فى الأدب المشرقى أو المغربى ، وإلى أن أقرر نشر دراسة – لوتيسَّر ذلك – عن تلك الأعمال التى بينها صلات – وهى فى معظمها لم تر النور حتى الآن – رأيتَ من المناسب أن أقدم – سلفا – هنا نشر نص موجز للرصافى حول هذا الموضوع ، وترجمته ؛ ليس لاعتقادى بأنه جدير أن يرى النور قبل رصفائه ، بل لإسبانية صاحبه .

كنت قد جمعت منذ أمد بيانات وافية لدراسة حياة هذا الشاعر البلنسى [2] الذى طالما اكتوى بنار الحنين لوطنه ، حيث ودع هنالك صباه ، توفى (لسنا ندرى تاريخ مولده) فى سنة ٥٧٢ = ١١٧٧ ، وفى اللحظة الأخيرة استغنيت عن ضم ترجمته لئلا أبالغ فى طول هذه الصفحات ؛ ولأن ترجمته نشرها حديثا الدكتور إحسان عباس محقق ديوان هذا الشاعر [3] (*) .

تضم «الإحاطة» لابن الخطيب (مخطوط الاسكوريال رقم ١٦٧٣) فضلا عن احتوائها مجموعة طيبة من شعر الرصافى – بعض مقامته فى وصف القلم ، وهى

(*) ترجمت هذا الديوان إلى الإسبانية صديقتى الباحثة ماريا تيريسا جارولو المدرسة بجامعة مدريد المركزية وعثرت على بعض قصائد لم يعثر عليها الدكتور إحسان عباس ، وقدمت للديوان بدراسة جيدة – المترجم .

موجودة كلها فى مركز الإحاطة (مخطوط المكتبة الأهلية بباريس رقم ٣٣٤٧) ، وعلى أساس هذين المخطوطين فإننى أنشر هذا النص القصير .

إن الوصف كما هو لا يظهر فى النص اللهم إلا إذا كان قصير الأنابيب هو الوصف الذى جاء فى البيت الأول من الأبيات الثلاثة التى تبدأ بها الرسالة ، والبقية تعداد لمناقب القلم ومنافعه بمصطلحاته المعهودة المبالغ فيها ، والإشارة إلى الأسلحة التى ينافسها القلم – فى تفوق – جعلتنى ألحق هذه الرسالة أكثر مما كان الحال مع رسالة ابن برد المذكورة آنفا ، مع نص الكاتب ذاته الذى يصف فيه القلم والدواة ، والكتاب ، والذى ترجمته أيضا فى الفصل المذكور [٤] ، فى جمل منقولة حرفيا على وجه التقريب ، وأفكار منقولة كذلك ، وإن كان الرصافى يؤكد أن القلم هو مفتاح الثراء .

هوامش

(١) سبق فى ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) وليس قرطبيا كما أكد : أ . ر . نيكل فى كتابه الشعر الأندلسى . ص ٣٢٦

(٣) ديوان الرصافى البلنسى أبى عبد الله محمد بن غالب . بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٠ ، ليس بالدقة ديوان الرصافى بل هو جمع للقصائد والأبيات التى عثر عليها المحقق فى المنتخبات الشعرية ، وفى بعض التواليف التاريخية والأدبية التى توجد بالمصادفة ، لم يستخدم المحقق – للأسف – الفصل الذى ترجم له ابن الخطيب فى الإحاطة ، حيث توجد تفصيلات وروايات هامة ، وأهم من ذلك أن ابن الخطيب قد احتفظ بقصائد مطولة أكثر من أى مؤلفات أخرى عن الشاعر ، مثال ذلك القصيدة رقم ١٨ فى طبعة بيروت (ص ٦٠ ، ٦١) وهى مراقبة للفقيه ابن أبى العباس الجذامى تحتوى على ثمانية أبيات ، بينما هى فى الإحاطة – مخطوط الاسكوريال – (ورقة ٦١ ، ٦٢) تسعة وأربعون بيتا ، وقصيدة أخرى يتغنى فيها الشاعر ببلنسية رقم ٢١ فى طبعة بيروت (ص ٦٨ ، ٦٩) تحتوى على ثمانية عشر بيتا ، بينما فى الإحاطة خمسة وستون بيتا (ورقة ٦٠ ، ٦١) .

(٤) راجع ما سبق ص ٢٣ ، ٢٤ .

قال من مقامة فى وصف القلم « من المتقارب » :

قصير الأنابيب لكنه ... يطول مضاء طوال الرماح
إذا عبّ للنقس فى دامس ... ودب من الطرس فوق الصفاح
تجلت به مشكلات الأمور ... ولان له الصعب بعد الجماح

فلولاه لغدت أغصان الاكتساب ذاوية ، وبيوت الأموال خاوية ، وأسرعت إليها البوسى ، وأصبحت كفؤاد أم موسى ، فهو لا محالة تجرها الأربح ، وميزانها الأرجح ، به تدر ألبانها ، وتثمر أفنانها ، ويستمر إفضالها وإحسانها ، فهو رأس مالها ، وقطب عمالها وأعمالها ، وصاحب القلم قد حوى المملكة بأسرها ، وتحكم فى طيها ونشرها ، فهو قطب مدارها ، وجهينة أخبارها ، وسر اختيارها واختبارها ، ومظهر مجدها وفخارها ، يعقد الرايات لكل وال ، ويمنحهم من المبرة كل صافية المقيل ، ضافية السربال ، يطفئ جمرة الحرب العوان ، ويكابد العدو بلا صارم ولا سنان ، يقد المفاصل ، ويتحلل الأباطح والمعاقل ، ويقمع الحواسد والعواذل .



الفصل السادس

بيع الأمة فى سوق الرقيق عند أبى البقاء الرندى

من بين النصوص الكثيرة التى جمعها ابن الخطيب فى مؤلفه الضخم «الإحاطة» نصوص تجعل من هذا المؤلف كتاب منتخبات جيد لكتاب وشعراء ، وهذا شىء ثمين بالنسبة لما يتعلق بالفترة الأخيرة فى حياة إسبانيا الإسلامية التى تخلو من مصنفات من هذا النوع بصورة ملحوظة للغاية ، من بين هذه النصوص نصوص كثيرة تستحق عناء ترجمتها ، ولأن الإحاطة مازالت - تقريبا - مخطوطة [١] (*) فذلك سبب يجعل مهمة تقييم الأدب الأندلسى فى حقبته الأخيرة لا تزال تنتظر من يقوم بها .

جزء ضخم من الإحاطة - كما هو معلوم - قد انتقل على شكل موجز صنفه المقرى فى مؤلفه الكبير « نفح الطيب » ، الذى يشكل الجزء الثانى منه - فى الواقع - بعضا من نتاج أديب لوشة وسياسيها ، هذا الجزء الثانى فى حاجة كذلك إلى طبعة محققة [٢] ، وقد قام البعض بدراسات ، وإحداها مثلا ذات قيمة ضخمة عن ابن زمرك قام بها دون إميليو غرثيه غومث [٣] ، وإذا كان هذا ممكنا فيما يتعلق بالشعراء فإنه ليس كذلك بالنسبة للناثرين ، فواضح أن منتخبات لشاعر ما - حتى وإن كانت موجزة - فإنها من الممكن أن توقفنا على قيمته ، وقد جمع المقرى مادة طيبة لدراسة كثير من هؤلاء الشعراء ، وفيما يتعلق بالنثر ، فإن المقرى - مع ذلك - إما أن يدرج فقط نصا مختصرا جدا يختاره بضربة حظ ، أو أنه يقتصر على القول بأنه قد صرف النظر عن إدراج هذا أو ذاك لطوله .

(*) نشرها نشرة رديئة الأستاذ عبد الله عنان ، وتحتاج إلى تحقيق آخر ، وقد صححت بعض الأخطاء فى مقال من مئة صفحة ينشر فى مجلة « أوراق » بالمعهد الإسبانى العربى لهذا العام - المترجم .

أمدتني القراءة الفاحصة لمخطوط الإحاطة الموجود في الاسكوريال ببعض النصوص الهامة غير الموجودة في « نفح الطيب » ، وهذه الصفحات التالية مخصصة لدراسة أحد هذه النصوص .

أبو البقاء الرندى :

أحد الشعراء الأندلسيين الذين يحظون بشهرة ضخمة بين العرب ، وأحد المعروفين جدا في وطنه هو صالح بن يزيد بن موسى بن أبي القاسم بن على بن شريف ، وهذا الاسم بطوله لا يفضى إلى شيء إذا لم نضف إليه أنه اسم الشاعر الذى يقترن في كل دراسات تاريخ الأدب الإسباني بشاعر إسباني مشهور هو خورخي مانريكي ، أقصد – وهذا واضح – أبا البقاء الرندى المعروف باسم Abulbeca De Ronda على أشهر التسميات الموضوعة له ، وقصيدته النونية التى يبكى فيها ضياع قرطبة وأشبيلية وبلنسية ومدن أندلسية أخرى قد استولى عليها النصارى ، والتى ترجمها إلى الإسبانية دون خوان باليرا (عن ترجمتها الألمانية التى اضطلع بها شاك) في البحر نفسه الذى نظم عليه خورخي مانريكي قصيدته في رثاء والده دون رد ريجو (*) ، حملت هذه النونية باليرا على أن يؤكد أن خورخي مانريكي قد قلد شاعر رندة (٤) ، نقض هاته المقولة ميننديث إي بلايو مبرهنا على أن المسألة مجرد تشابه وقع عن طريق المصادفة زاد منه – بالذات – كون الترجمة الإسبانية للقصيدة قد جاءت في البحر الذى نظم عليه مانريكي (٥) ، أما مؤرخو الأدب الإسباني فقد أخذوا هذه الرواية الطريفة ، فيذكرون دائما شاعر رندة عند الحديث عن خورخي مانريكي .

كنا – حتى عهد قريب – لانكاد نعرف شيئا عن أبي البقاء ، حتى لم تكن لدينا فكرة دقيقة عن الحقبة التى عاش فيها ، لا توجد ترجمته في «نفح الطيب» للمقرى ، ولا في «أزهار الرياض » للمؤلف ذاته ، بالرغم من أنه ذكر قصيدته النونية في المؤلفين كليهما ، ربما كان هذا سببا في الغموض الذى اكتنف هذا الشاعر ونظرا لأن شاعرا

(*) ترجمنا هذه القصيدة إلى العربية ، ونرجو أن نصوغها شعرا في البحر الذى نظم منه الرندى قصيدته – المترجم .

مجهولا متأخرا أضاف أبياتا جديدة إلى قصيدته ، فقد وصل الأمر كذلك إلى أن أكد البعض أنه مات فى مطالع القرن السادس عشر (٦) .

نقّب - عرضا - أستاذى دون إميليو غرثيه غومث - عند دراسته (*) للشاعر الشريف الطليق (٧) عن تاريخ مولد أبى البقاء ووفاته [٦٠١ - ٦٨٤ = ١٢٠٤ - ١٢٨٥] وذكر أن أفضل ترجمة له موجودة فى «الإحاطة» ، وأورد إشارات دقيقة إلى عدة مخطوطات منها (٨) ، هذا الخبر الذى نشر عام ١٩٤٤ (٩) قد مر مرور الكرام - بصفة عامة - دون ملاحظة من الذين اهتموا بالشاعر (١٠) ، وجعل من غيرهم وكأنه اكتشف بحرا كالبحر المتوسط .

فى الدراسة ذاتها التى أشرت إليها الآن أشار غرثيه غومث - فضلا عن ذلك - إلى مقال بن حمودة الذى أشرت إليه آنفا (١١) ، الذى إن لم يضف أى بيان عن شخصية أبى البقاء ، فإنه أومأ على الأقل إلى أنه ناظم القصيدة النونية ، ومؤلف «الوافى فى نظم القوافى» الذى كان يعتبر أثرا ذا دلالة على ذلك (١٢) .

مقال حديث وهام للعلامة المغربى سيدى عبد الله كنون يدور بالذات حول «الوافى فى نظم القوافى» (١٣) يعانى فى إغفاله مقال بن حمودة (والمخطوطات التى رجع إليها) ، ومقال غرثيه غومث (ويتحدث عن مخطوط آخر «للوافى» موجود فى مجمع التاريخ الملكى فى مدريد) (١٤) كان من الممكن أن يقفه على مقال ذاك ، ولهذا السبب نفسه يبدو أنه لا محل للإعجاب الذى نشأ فى نفس عبد الله كنون بالمجهود الذى بذله زميله المصرى عبد الله عنان لتحديده الحقبة التى عاش فيها أبو البقاء ، والتى يحددها بأنها كانت فى النصف الثانى من القرن السابع = الثالث عشر ، وغريب - من جانب آخر - برغم وقوفه على ترجمة الشاعر الموجودة فى الإحاطة والتى سنتحدث عنها الآن ، وبرغم أنه نقل قدرا طيبا فى مقاله من أخبار ابن الخطيب الطويلة حول الشاعر ، وكذلك نقله قدرا كافيا فى القصائد الموجودة فى الترجمة ذاتها ، غريب أن يخفى عليه تاريخ مولد أبى البقاء وتاريخ وفاته وهما موجودان فى نهاية ترجمته .

(*) ترجم هذه الدرسة الدكتور الطاهر مكى ، وعثر على قصائد للشاعر لم يعثر عليه الأستاذ غومث - المترجم .

خبر أبى البقاء الموجود فى « الإحاطة » :

فى مخطوط «الإحاطة» بالاسكوريال (رقم ١٦٧٣) [١٥] ما بين صفحات ٢٠٧ – ٢١٢ فصل خصصه ابن الخطيب لأبى البقاء الرندى ، وإذا كانت هذه الترجمة لم يستخدمها أحد فى دراسته عن الشاعر – وإن كانت غير مجهولة – فقد استخدمها الغزيرى [١٦] ، ومرد ذلك عدم معرفة دورانها حول الشاعر أبى البقاء ، فهذه الكنية لا تظهر فى أخبار ابن الخطيب ، ولا تبدو كذلك فى تضاعيف شعره الذى اختاره ، وهو شعر تقف منه على مكانته شاعرا مجيدا ، ولا بيت واحد من قصيدته النونية تلك القصيدة التى خولت له شهرة بالغة ، لم يظهر عنها أدنى إشارة .

يبدأ ابن الخطيب [١٧] كعادته دائما بذكر نسبه كاملا ما وسعه ذلك ثم يذكر حاله ومشايخه ، وتواليفه ، ودخوله غرناطة ، ثم يتطرق بعد ذلك للحديث عن شعره مع ذكر نماذج كثيرة له ، ثم نثره ذاكرا النص الذى نحن بصدد دراسته ، ليخلص إلى تاريخ مولده ووفاته .

يظهر الاسم هكذا : صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبى القاسم بن على بن شريف النفزى [١٨] ، ويكنى أبا الطيب فى أهل رندة ولذا ألحق به مركز الإحاطة نسبة الرندى أيضا [١٩] .

تلك الأخبار القليلة التى لدى ابن الخطيب عن هذه الشخصية استقاها فيما يبدو من مصدرين : ابن الزبير وابن عبد الملك ، وكلاهما يمدح فى مبالغة صالح بن يزيد ، يقرظه ابن الزبير بهذه الكلمات :

شاعر مجيد فى المدح والغزل وغير ذلك ، وعنده مشاركة فى الحساب والفرائض ، نظم فى ذلك ، وله تواليف أدبية ، وقصائد زهدية ، وجزء على حديث جبريل عليه السلام ، وغير ذلك مما روى عنه ، وكان فى الجملة معدودا فى أهل الخير ، وذوى الفضل والدين ، تكرر لقائى إياه ، وقد أقام بمالقة أشهر أيام إقرائى ، وكان لا يفارق مجالس إقرائى ، وأنشدنى كثيرا من شعره .

ويقول عنه ابن عبد الملك ما يلى : [٢٠] وكان خاتمة الأدباء بالأندلس بارع التصرف فى منظوم الكلام ومنثوره ، فقيها حافظا فرضيا [٢١] ، متفننا فى معارف جليلة ، نبيل المنازع متواضعا ، ومقتصدا فى أحواله ، وله مقامات بديعة فى أغراض شتى ، وكلامه نظما ونثرا مدون .

على التوالى يذكر ابن الخطيب طائفة شيوخه : أبو الحسن والد الشاعر ، وأبو الحسن الدباج [٢٢] وأبو الحسن بن الفخار الشريش [٢٣] وأبو الحسن بن قطرال [٢٤] وأبو الحسين بن زرقون [٢٥] وأبو القاسم بن الجد [٢٦] .

ثم يعدد فيما بعد تواليفه التى لا يظهر بعضها فى الاستشهادات التى ترجمناها فى السطور السابقة : ألف جزءا على حديث جبريل ، وتصنيفا آخر فى الفرائض وأعمالها ، وآخر فى العروض [٢٧] ، وتأليفا فى البلاغة تحدثنا عنه آنفا بعنوان «الكافى فى علم القوافى» [٢٨] إلى جانب كتاب مسهب آخر بعنوان «روضة الأنس ونزهة النفس» اختار منه ابن الخطيب النص الذى أورده للدلالة على نثر أبى البقاء ، وأنشره محققا فى نهاية هذا الفصل .

لا نكاد ندرى شيئا عن حياة الكاتب الطويلة خلاف الأخبار الأولية : تاريخ مولده (المحرم ٦٠١ - سبتمبر ١٢٠٤) وتاريخ وفاته (٦٨٤ = ١٢٨٥ - ١٢٨٦) ، يقول ابن الخطيب إنه كان كثير الوفادة على غرناطة والتردد إليها ، يسترفد ملوكها ، وينشد أمراءها ، وإحدى هذه القصائد - وهى معارضة لقصيدة ابن هانئ - نظمها باقتراح من السلطان - لا ندرى أى سلطان - وقد أوعز إليه ألا يخرج من البساتين الملكية حتى يكملها .

ثم يعرض ابن الخطيب رأيه فيه شاعرا ، وهو رأى متزن سيجعلنى أعود لدراسة هذا الجانب منه ، يقول ابن الخطيب : " وشعره كثير سهل المأخذ ، عذب اللفظ ، رائق المعنى ، غير مؤثر للجزالة " [٢٩] .

تضم الإحاطة بعد ذلك نماذج من شعر أبى البقاء ، بعضها - وهو أطولها - قصائد المدح ، وفى المختارات القصيرة موضوعات متنوعة : الليل ، والسهاد ، وفى مكارم الأخلاق : الذكاء ، والصبر ، والكرم ، بيد أنه قبل أى شىء تبرز شخصيته

وأصالته فى قصائد الوصف ، يصف الطبيعة : البحر ، والأنهار ، والحرب : الجيش ، والرمح ، والسيف ، وله مقطوعة أخرى يوازن فيها بين السيف والقلم - وهو موضوع خصب فى الأدب الأندلسى (٣٠) - والمقص ، والفاكهة : الأترج ، والرمانة ، والجزر ، والجوز ، ونوع واحد من الزهر : الخيرى. يورد ابن الخطيب أيضا من خلال سند معروف تماما شاهدا كتبه الشاعر لمقبرته هو ، يقول من الطويل (٣١) :

خليلى بالود الذى بيننا اجعلا ... إذا مت قبرى عرضةً للترحُّم
عسى مسلم يدنو فيدعو برحمة ... فإنى محتاج لدعوة مسلم .

أما ترجمة أبى البقاء الموجودة فى «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك المراكشى فى مجلد نشر حديثا (٣٢) فإنها لا تضيف شيئا ذا أهمية خاصة عما أورده ابن الخطيب ، ومرد ذلك - فى جانب منه - أن كثيرا مما يقوله ابن الخطيب - وإن كان لا يذكر ذلك أكثر من مرة واحدة - قد أخذه من ابن عبد الملك المراكشى ، فمثلا عند ذكره لشيوخ أبى البقاء ، وذكره تواليفه ، ومن المحتمل أن أخبارا أخر مثل تاريخ مولده ووفاته تأتى من الذيل ، بيد أنه ليس فى ذرعنا التحقق من ذلك ؛ لأنه توجد فيه ثغرة - لا نعلم مداها - تجعل المقال المخصص لشاعر رندة غير كامل ، والقصائد المذكورة - والقصيدة النونية ناقصة بالطبع ، وكذلك كنية أبى البقاء - مأخوذة من مؤلفه «الوافى» الذى ذكرته مرات متعددة (٣٣) .

عثرت على بعض بيانات أخرى فى مصنفات أخر ، موجودة مثلا فى «نفح الطيب» (٣٤) ، لا تضيف شيئا ذا بال عما قلته ، فصرفت النظر كما صرفته عن دراسة ما يتعلق بالقصيدة النونية - فقد صنعه عبد الله كنون (٣٥) من قبل - ثم إنها ستطيل هذا التمهيد دون مقتضى ، لننتقل إلى الكلام الذى يهمنى أكثر : ما ذكره ابن الخطيب عن كتاب « روضة الأنس » .

رسالتنا كتاب الأنس :

من « روضة الأنس ونزهة النفس » الذى يمكن أن يعتبر مصنفا أدبيا ذا طابع شخصى إلى حد كبير حسب هذا النموذج - نقل مؤلف الإحاطة فقرة تتألف من جزأين :

أولاهما : رسالة وجهها الكاتب أبو بكر البرزعي [٣٦] إلى صاحبنا صالح بن يزيد يقص عليه مروره بسوق الرقيق ، وفيها تعرض للبيع جارية بارعة الحسن ، موصوفة بدقة ، وبعد مزاد حاد ، انتهى بها الأمر إلى يد فتى ثرى ، ويصف فيها الحزن الذى أعقبه هذا فى نفس الكاتب الذى لم يستطع شراءها لنفسه

ثانيتهما : رد ابن يزيد الذى على النمط الفكاهى نفسه - يوصيه بنصائح طيبة ، ويستغل المناسبة بدوره ليبدع فى وصف جارية أخرى تشبه الأولى جمالا .

من المحتمل أنها ليست عبارة عن ابتداع من بنات أفكار الكاتب ، فإن كلا الكاتبين قد تبادلا تلك الرسائل حقيقة ، ومهما بدا لنا هذا الموضوع مبتذلا ، فعلينا أن نعتبره ذريعة بسيطة ليس إلا ؛ كى يمارس رجلان من رجال الآداب - فى إلحاح - ويفرغا معارفهما التى يحوزانها فى اللغة والأدب فى موضوع تحريرى بسيط ، المهم فيه قبل كل شىء طريقة عرضه ، ويحتل الشكل فيه مرتبة أكبر من المضمون .

هذا النوع الأدبى الذى هو عبارة عن تنويعات لموضوع واحد ، وإن كان الموضوع المقترح باليا إلى درجة بعيدة ، فإنه يجرى ويمارس إلى جانب أنماط كثيرة أخرى فى الأدب العربى ، وفى الأدب الأندلسى أيضا ، وقد راق لابن بسام أن يجمع - سواء شعرا أو نثرا أو مزيجا من كليهما - شيئا غير قليل من أعمال معاصريه .

كان وصف المرأة ومحاسنها الجسدية - أكثر من وصف خصالها الخلقية - أحد الموضوعات اللازمة - على الدوام - للأديب العربى ، كتب نثرا أو نظم شعرا بقصد جمالى محض ، أو بذىء صراحة ، سواء استخدم أسلوبا جزلا أو أسلوبا سهلا يسيرا فى لغة بسيطة يستطيع الجميع فهمها ، وبما أنه لا يستطيع أن يكون أقل من هذا ، فقد ابتدع حول هذا الموضوع سلسلة من الأفكار المطروقة مازالت حتى الآن شائعة فى الشعر العربى الحديث على الرغم من تأثير الشعر الأوروبى ، فإن هذه الأفكار ما تزال عملة شائعة التداول قانونا .

لعلى أقول إذا كان التصوير الإنسانى محرما فى الإسلام ، وقد حل محله هذه اللوحات التى تقوم فيها الكلمات مقام الألوان ، فإن الصفحات التى أنشرها مترجمة فى نهاية هذا الفصل - محذوفا منها الجزء الدلالى - ربما تجد شبيها لها فى

اللوحات النسائية العارية الرائعة فى عصر النهضة ، وبالنسبة لنا فإنه لا يمثل شيئا ، فاضحا تأمل لوحة من تلك اللوحات التى تمثل فيها المرأة موضوعا فنيا محضا ، وتمرينا لازما يبرز فيه الفنان مقاييس هذا الجمال ؛ فإن شيئا شبيها بهذا قد حدث فى الأدب العربى ، ولذا لم يبال هذان الأديبان بإدخال هذا الموضوع دون المجازفة بشهرتهما رجلين صالحين (٣٧) ، ولذا فإن صالح بن يزيد لم يجد أى حرج فى ضمه إلى مؤلفه الذى يصنعه بين يدى قرائه ، ولنعترف أيضا أنه لا يكاد - على وجه العموم - يوجد شىء يخدش ذوق القارئ الأوروبى أو يخجله (٣٨) ، وربما كان ذلك أيضا لأن هذا الرسم منزوعة عنه صفة التشخيص المحدد فى هذا وذاك .

أعتقد أن هذه الصفحات تصلح للتعمق فى الموضوع ، ولن ألج هذا الآن ؛ فإن " دامسو ألونسو " قد عالج فى مقاله الموحى " الحسناء عند خوان رويث كلها مشاكل " والتى تستطيع - إلى حد ما - أن تصلح لإتمام الموضوع أو منحه مظهرا جديدا (٣٩) .

يحتوى شكل الرسالة عند البرذعى على نوع من المناظرة مع المقامات المشرقية ، وهو نوع له فى الأندلس طابع متباين إلى حد بعيد ، الروح الفكاهية التى يستعرضها الكاتب تفضى به فى نهاية الرسالة إلى أن يطلب من صديقه الموجه إليه الخطاب أن يشترى له جارية ، ويتابع متعمدا وساخرا صيغة قصائد المدح التى يطلب فيها الشعراء صلاتهم ، والتى عند ابن قزمان قد بلغت أقصى درجات الوقاحة والسفور ، نفس الطريقة انتقلت إلى النثر المسجوع الذى نجد منه شاهداً متأخراً فى تصنيف مؤلف مالقى هو ابن المرابع الأزدى (٤٠) .

هوامش

(١) المجلدان المنشوران بالقاهرة سنة ١٣٣٧ هما موجز فحسب للعمل كله ، وهما بعيدان عن أن يمثلا طبعة مقبولة ، وطبعة المؤلف كله التى بدأها العلامة المصرى السيد عبد الله عنان لم تتجاوز الجزء الأول الذى ظهر منذ عشرين سنة ، أما طبعة دار المعارف بالقاهرة - سلسلة ذخائر العرب فقد ظهرت بدون تاريخ ، ومقدمة الناشر مؤرخة فى أغسطس سنة ١٩٥٥ .

(٢) توجد طبعات شرقية متعددة : بولاق ١٢٧٩ ، القاهرة ١٣٠٢ ، وطبعة القاهرة ١٣٦٩ = ١٩٤٩ لمحيى الدين عبد الحميد ، وليست أفضل من سوابقها .

(٣) ابن زمرك شاعر الحمراء . محاضرة ألقاها غرثيه غومث فى مجمع التاريخ الملكى بمدريد سنة ١٩٤٣ ، وأعاد نشرها فى كتابه خمسة شعراء مسلمون ص ١٧١ - ٢٧١ ، وقد نشرت جمعية أصدقاء الحمراء طبعة جديدة تكريما للمؤلف عند إحالته للاستيداع من عمله الجامعى (غرناطة ١٩٧٥) .

(٤) أدولفو بريكو دى شاك " الشعر والفن العربى فى إسبانيا وصقلية " ترجمة خوان باليرا ، وأستعين لعدم عثورى على طبعة أكثر شعبية - بطبعة دار ثنتاورو للنشر . المكسيك ١٩٤٤ . والمرثية موجودة فى صفحات ١٣٠ - ١٣٦ ، وقد رأى المترجم أن خورخى مانريكى " لابد أن يكون قد عرف قصيدة شاعر رندة واحتذى حذوها " هذا الرأى موجود فى ص ١٣٠ - ١٣١ ، (ترجم صديقى وأستاذى الدكتور الطاهر مكى كتاب ف . شاك ، ونشر الجزء الأول منه ، والجزء الثانى قيد الطبع الآن فى دار المعارف - المترجم) .

(٥) راجع م . ميننديث بلايو " تاريخ الشعر الإسبانى فى العصور الوسطى " طبعة أعدها وعلق عليها : أ . بونيّه وسان مارتين . جـ ٢ . مدريد ١٩٤٤ ص ٤٠٥ - ٤٠٨ .

(٦) بواسطة الأب شيخو فى مؤلفة " شرح مجانى الأدب " . بيروت . جـ ٢ . سنة ١٨٨٨ ص ٨٥٣ . ذكره أحمد بن حمودة فى مؤلفه " الوافى فى نظم القوافى " لأبى البقاء بن شريف الرندى المنشور فى Mélanges offerts à Gaudefroy - Demombynes par Ses Amis et Anciens Élèves, El Cairo 1935 - 45, pp 189-195. CF.P 192 Y Nota 8.

(٧) إميليو غرثيه غومث . الشريف الطليق وديوانه فى كتابه " خمسة شعراء مسلمون " ص ٦٩ - ٩٣ .

(٨) المرجع السابق ص ٩٢ هامش ٢٥ .

(٩) نُشر المؤلف المذكور للمرة الأولى فى مجلة الاسكوريال مارس ١٩٤٢ ص ٣٢٣ - ٣٤٠ لكن الملحق - حيث ظهر فيه هذا الخبر - أضافه المؤلف فى الطبعة الجديدة لكتابه " خمسة شعراء مسلمون " .

(١٠) مثلا . أنخل جونثالث بالنيثا . الأدب الأندلسى ط ٢ المنقحة برشلونة سنة ١٩٤٥ ص ١٠٥ - ١٠٧ ، و أ . نيكل : الشعر الأندلسى ص ٣٣٩ حيث يقول : " The Exact Dates of AL-

Rundi Are ont Known " وخوان بيرنيت فى كتابه المنشور مؤخرا " الأدب العربى " برشلونه ط ١ بدون تاريخ مدون (لكنه نشر عام ١٩٦٦) يشير فى الموجز الذى تناول فيه أبا البقاء إلى سنة وفاته .

(١١) سبق هذا فى ص ١٤٤ هامش ٦ .

(١٢) أقول إنه كان إشارة ؛ لأن كتاب الوافى مذكور بنسبته إلى مؤلفه عند بروكلمان وجال ملحق ٢ (١٩٣٨) ص ٩٢٥ بين المؤلفات اللغوية ، وفى الملحق ١ (١٩٣٧) ص ٨٦٠ يأتى كذلك الرندى مذكورا بأعماله فى الرياضة ، ويكنى أبو البقاء " الطيب " مع ذكر سنتى المولد والوفاة .

(١٣) أبو البقاء الرندى وكتابه " الوافى فى نظم القوافى " فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، العدد السادس ١٩٥٧ ص ٢٠٥ – ٢٢٠ فى القسم العربى وفى الموجز الإسبانى له فى ص ١٥٦ ، ١٥٧

(١٤) المرجع السابق ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ (وفى مؤلف نشر حديثا يطرح الأستاذ التونسى جعفر مجيد " أبو البقاء الرندى ناقدا وشاعراً " فى محاضر الملتقى الإسبانى التونسى الثانى للدراسات التاريخية ، مدريد ١٩٧٣ ص ٢٦٣ – ٢٨٦ ، يطرح الأستاذ جعفر المشكلة التى قد حلت ، والخاصة بتعيين الحقبة التى عاش فيها أبو البقاء ، وبما أن الموضوع قد فات على الأستاذ كنون فإن الأستاذ مجيد يعتقد أن المخطوط التونسى للإحاطة الذى استخدمه هو المخطوط الوحيد الذى يحتوى على تاريخى ميلاد أبى البقاء ووفاته (راجع مؤلفه المذكور ص ٢٦٩ ، ٢٧٠) وقد قيل إنهما التاريخ نفسه فى إحاطة الاسكوريال الذى ذكره غرثيه غومث سنة ١٩٤٤ ، والذى قلته أنا عام ١٩٦٦ حينما نشرت للمرة الأولى هذه الصفحات .

(١٥) عن فهرس ديرنبورج ، عبارة عن المخطوط نفسه الذى رجع إليه السيد كنون .

(١٦) راجع مكتبة الاسكوريال العربية الإسبانية ، مدريد ١٧٧٠ جـ ٢ ص ٩٧ ويدعوه الغزيرى صالح بن يزيد أبا الطيب المعروف بالشريف لدى العامة ، واستغل الخبر الوجيز الذى كتبه عنه الغزيرى م . لافوينتى القنطرة فى كتابه "تاريخ غرناطة" ، غرناطة ١٩٠٤ – ١٩٠٧ جـ ٣ ص ١١٣

(١٧) لا يستحق عناء أن نعود إلى إيراد النص العربى للترجمة ؛ فقد نشره عبد الله كنون فى المجلة المذكورة ص ٢١١ ، ٢١٢ ، وعلى هامش المخطوط ص ٢٠٧ – حاشية لم ينقلها كنون ، تقول : صالح بن شريف صاحب العروض ، وعلى قيد ناظرى مركز الإحاطة مخطوط المكتبة الأهلية فى باريس رقم ٣٣٤٧ ، والخبر الوارد عن صالح بن يزيد فى الورقة ١١٧ إلى ١٢٤ ، وجه الورقة .

(١٨) لم يذكر كنون هذه النسبة .

(١٩) راجع المخطوط المذكور ورقة ١١٧ .

(٢٠) الاستشهاد وارد من كتاب "الذيل والتكملة" الذى بدأ نشره فى الأعوام الأخيرة ، فى المجلد الرابع ص ١٣٦ – ١٣٩ ، يظهر الخبر غير كامل والمتعلق بصالح بن يزيد – كما سوف أشير إلى ذلك فيما بعد .

(٢١) " مرضيا " فى المخطوط ، وفى المركز فى المكان المذكور ، وتبدو راجحة القراءة التى أمدنا بها الذيل جـ ٤ ص ٣٧ : " مُرضيا " وتعنى الفقيه بمسائل الإرث .

(٢٢) على بن جابر بن على بن يحيى اللخمى ، ولد سنة ٥٦٦ = ١١٧٠/١١٧١ ، وتوفى فى أشبيلية موطنه سنة ٦٤٦ = ١٢٤٨ ، فى الأيام التى غزا فيها سان فرناندو المدينة ، وابن عبد الملك الذى خصه بخبر طويل فى (الذيل ، المجلد الخامس ص ١٩٨ - ٢٠١) يروى الظروف المأساوية التى أحدقتا بموته ودفنه ، وترجمته موجودة أيضا عند ابن الزبير فى « صلة الصلة » ، ترجمة رقم ٢٧٧ ، وعند ابن الأبار فى « التكملة » ترجمة رقم ١٩١٠ ، وابن سعيد فى المغرب جـ ١ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، وفى مصادر أخرى متعددة .

(٢٣) على بن إبراهيم بن على بن عبد الرحمن بن حسن الأمى ، (توجد روايات مختلفة لهذا اللقب (الأميى ، الأموى) المعروف بابن الفخار الأركى ، تولى منصب القاضى فى الجزيرة الخضراء وفى رندة ، ولد عام ٥٦١ = ١١٦٦ ، وتوفى فى شريش عام ٦٤٢ = ١٢٤٤ ، ترجم له ابن الأبار فى التكملة تحت رقم ١٩٠٧ ، وابن عبد الملك فى الذيل جـ ٥ ص ١٨٥ ، ١٨٦ ، وابن الزبير فى «صلة الصلة» رقم ٢٧٤ ، والرعينى فى البرنامج ص ١٢٣ .

(٢٤) على بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن قطرال الأنصارى ، أصله من أبذة ، تولى منصب القاضى فى عدة مدن أندلسية - من بينها قرطبة - وفى مدن مختلفة فى المغرب أيضا . ولد عام ٥٦٢ = ١١٦٦/١١٦٧ أو عام ٥٦٣ = ١١٦٧/١١٦٨ وتوفى سنة ٦٥١ = ١٢٥٣ ، وترجم له ابن الأبار فى التكملة رقم ١٩١١ ، وابن الزبير فى «صلة الصلة» رقم ٢٧٩ .

(٢٥) عثرت على عضوين من هذه الأسرة المعروفة يحملان كنية أبى الحسين ، أولهما على بن عبد الرحمن بن زرقون ، وعن هذه الشخصية البلنسية وقعت على خبر مقتضب خصه به ابن عبد الملك فى الذيل جـ ٥ ص ٢٣٦ ، يقول إنه كان على قيد الحياة حتى عام ٥٩٧ = ١٢٠٠/١٢٠١ ، ولابد أن يكون قد عاش سنوات كثيرة إذ كان أستاذاً لأبى البقاء المولود سنة ١٠٢٤ . ثانيهما محمد بن محمد بن سعيد بن أحمد ابن سعيد بن عبد البر بن مجاهد الأنصارى المعروف بابن زرقون ، وهذا أشبيلى ، خصه بخبر طويل تلميذه الرعينى فى البرنامج ص ٣١ - ٣٧ ، ويوجد أيضا عند ابن الأبار فى التكلمة ترجمة رقم ٩٦٧ ، ولد سنة ٥٣٩ = ١١٤٤ ، وتوفى فى أشبيلية سنة ٦٢١ = ١٢٢٤ ، أظن أنه هو ابن زرقون الذى يشار إليه هنا ، وأصل هذا اللقب ابن زرقون الذى يشرحه بعض أصحاب التراجم عند الحديث عن بعض أفراد هذه الأسرة مأخوذ حسب الروايات المتعددة عن ترجمة سعيد بن أحمد بن سعيد التى خصصها له ابن عبد الملك (راجع الذيل جـ ٤ ص ٢٣) .

(٢٦) لم أجد أخبارا محددة عن هذه الشخصية ، وبنو الجد أسرة معروفة من الأدباء كانت تقيم فى لبلة ، أحدهم أبو القاسم - ليس بالطبع هذا - المتوفى سنة ٥١٥ = ١١٢١ - قد ترجم له ابن عذارى (راجع المطرب من أشعار أهل المغرب بتحقيق إبراهيم الإبيارى ، وأحمد عبد المجيد وأحمد بدوى ، القاهرة ١٩٥٤ ص ١٩٠ - ١٩٢ ، وهو كاتب رسائل سلطانية متعددة نشرها الدكتور مكى (مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، العدد السابع والثامن - ١٩٥٩ - ١٩٦٠ ، ص ١١٦ فى القسم العربى وهامش ١ حيث يعود المصادر التى تتحدث عنه) ولقد عثرت - بعكس ذلك -

على ذكر أبى بكر بن الجد الذى ذكره بصورة متواترة أصحاب التراجم الأندلسيون ، لكن حسب ما يقوله ابن الأبار فى التكملة ترجمة رقم ٨٢٥ ، توفى سنة ٥٨٦ = ١١٩٠ ، أى قبل مولد أبى البقاء ، وابن عبد الملك – ومصدره ابن الخطيب – يدعوه أيضا بأبى القاسم ، ويلقبه بالتونسى (راجع الذيل جـ ٤ ص ١٣٧) .

(٢٧) مخطوط . ص ٢٠٧ : وآخر فى العروض ، والمركز ورقة ١١٧ ، ظهر الورقة ، تأليف فى العروض ينقص فى نقل كنون فى المقال المذكور ص : ٢١١ .

(٢٨) هكذا أيضا فى المركز ، الورقة المذكورة ، وليس الوافى فى علم القوافى ، وهو الاسم الذى له – أعتقد – فى كل الفهارس ، ومخطوط الاسكوريال بهامشه حاشية من عمل الناسخ ، نقلها عنه كنون (ص ٢١١ – هامش ١) تقول : (عندى أنه الوافى ، وعلى ملكى منه نسخة عليها خط المؤلف المترجم به) وفى الذيل – مصدر الإحاطة – يوجد نفس العنوان الذى فى هذه (راجع ما يأتى ص ١٥٤ هامش ٣٣) .

(٢٩) راجع مقال كنون ص ٢١٢ .

(٣٠) راجع ما سبق ص ١٨ وما بعدها .

(٣١) هذان البيتان اللذان تغاضى عنهما كنون هما بالأصل (مخطوط الاسكوريال ورقة ٢١٢ ، ومخطوط باريس ورقة ١٢٤ ، وجه الورقة) .

خليلى بالود الذى بيننا اجعــلا إذا مت قبرى عرضة للترحم

عسى مسلم يدنو فيدعو برحمـة فإنى محتاج لدعــوة مسلم

(٣٢) راجع ما سبق ص ١١٤٩ وهامش ٢٠

(٣٣) يحدثنا ابن عبد الملك بأنه فى هذا المؤلف الذى يسمى أيضا الكافى فى علم القوافى كما قلنا آنفا (راجع ما سبق ص ١٥١ هامش ٢٨) جمع فيه صالح بن يزيد عددا طيبا من شعره هو ، وأعطانا مثالين من ذلك ، راجع الذيل جـ ٤ ص ١٣٧ – ١٣٩

(٣٤) أخذها ابن حمودة فى المقال المذكور ، وقد درس بجانب هذا مصادر أخرى منها الذخيرة السنية التى استخدمها فيما بعد ع.ا.ن .

(٣٥) عن هذا المؤلف الذى ليس لدى عنه أخبار سوى ما فى الإحاطة ، هناك مخطوط للقسم الأول منه بعنوان روض الأنس ونزهة النفس يوجد بين مصادر أخرى استخدمها عبد الله المنونى فى مصنفه العلوم والآداب والفن على عهد الموحدين . تطوان ١٣٦٦ = ١٩٥٠ ص ٣٠١ ، وهذا المخطوط ملك المؤلف كان يشكل جزءا على ما يبدو من مكتبة ابن غازى (وعنه انظر رقم ١٢ من مشاهير رجال المغرب لعبد الله كنون (تطوان بدون تاريخ) ويذكر محمد المنونى بعد ذلك مباشرة مخطوطا آخر للوافى – لا يذكر من أين – ويعطى كلا المؤلفين اسم الكاتب : أبو البقاء صالح بن شريف الرندى .

(٣٦) هـذا الـكاتب هـو بلا ريب الشخص ذاته الذى يحدثنا عنه على بن موسى بن سعيد فى المغرب جـ ١ ص ٣٣٨ عند ذكره شعراء كورة رندة كان أصله من أوندة إحدى حصون الكورة كما يهتم ابن سعيد بذلك فإنه لا ينبغى الخلط بينها وبين أوندة إحدى كور بلنـ ـية ، الواقعة فى مقاطعة قسطلون الحالية ، التى يذكرها المقرى أيضا حينما يتحدث عنها (انظر نفح الطيب جـ ٦ ص ١١١ = نفح الطيب جـ ١ ص ١٧٠) ويدعوه ابن سعيد أبا بكر بن عمر الأوندى الذى انتقل من أوندة إلى أشبيلية ، حيث تتلمذ على النحوى الجليل الشلوبينى ، وقد حضر تلك الدروس ابن سعيد كذلك ، مما أتاح له الفرصة كى يقدر ذكاءه المفرط ، وينتهى الخبر الموجز ببيتين له من الشعر ، مأخوذين – إن لم يكونا فى المغرب – فهما على الأقل من الكتابات المقابلة للنص المطبوع ، إذ أن التمهيد المخصص لهما مختلف عند المقرى (راجع نفح الطيب Analectes جـ ٢ ص ٥١٢ = نفح الطيب جـ ٥ ص ٢٦٩) وفى القدح المعلى فى التاريخ المحلى (فى اختصار أبى عبد الله محمد بن خليل الذى نشره إبراهيم الإبيارى – القاهرة ١٩٥٩ ص ١٦٨ ، ١٦٩) ، وأعطانا ابن سعيد أخبارا جديدة عن أبى بكر الأوندى تتعلق بإقامته فى إشبيلية وكلاهما مع الشاعر الكبير ابن سهل قد كرسوا أنفسهم دون حدود لممارسة الآداب ، واستسلموا فى إصرار لملذات التى يقتضيها الشباب .

كان أبو بكر – شاعرا – تقليديا : " جامحا فى ميدان الشعر ، جاريا منه على أوضح منهج " ، لكن ما كانت له قامة ابن سهل ، ولهذا السبب تخلى ابن سعيد عن أن يضعه فى ارتباط الارتجال الشعرى معهم ، وفى نهاية حياته وصل رغم ذلك إلى أن يكون شاعرا لا بأس به ، ولقد ترك ابن سعيد رؤية أبى بكر حينما كان هذا فى غضارة شبابه يخبط خبط عشواء ، ولم يبد يعلم عنه أى شىء منذ أن شرع فى السفر إلى المشرق ، ولم يظهر فى أىٍّ من الخبرين أية معلومة عن مولده أو وفاته ، لكن بما أنه كان معاصرا – قطعا – لعلى بن موسى بن سعيد (٦١٠ – ٦٧٢ = ١٢١٣/١٢١٤ – ١٢٧٤) فإن أبا بكر هذا من الجائز جدا أن يكون هو كاتب الرسالة إلى أبى البقاء ، ولم تظهر نسبة البرذعى لا عند ابن سعيد ولا عند المقرى ، وهذا الأخير (فى نفس المصدر والمكان) يدعوه الرندى .

(٣٧) نموذج آخر – عجيب حقا – أخذه المقرى (نفح الطيب جـ ٨ ص ٢٨٠ – ٢٨٦) هو رسالة بعث بها ابن الخطيب إلى ابن خلدون يوصيه بما ينبغى أن يعامل به محظيته هند .

(٣٨) مع كل هذا ، لا أعتقد أنه يمكن الاعتداد برأى يحدثنا عن نشاط أبى البقاء الأدبى يقدمه لنا الغزيرى بعد أن تحدث عن أعماله الكبرى دون أن يذكر سوى العناوين التى جمعها ابن الخطيب عن التراجم التى استشارها فيدلى برأيه الخاص مشيرا إلى النص الذى نحن بصدد دراسته هو " Ad Haec - Accenunt Rhetorica puellae Descriptio, Vividis, sed Honestis : Coloribus A dumbrat " (المكتبة العربية الإسبانية فى الاسكوريال جـ ٢ ص ١٧ B) ، وأيضا م . لافوينتى القنطرة – مستندا على ذلك – الذى فى الأغلب لم ير الأصل حتى من بعيد " وصف الفتاة الوردية ، عفيفة الخد " (راجع كتابه تاريخ غرناطة . الطبعة المذكورة المكان نفسه ، وما سبق فى هامش ١٦) .

(٣٩) نشر فى " إنسولا " العام السابع ، عدد ١٥٠٧٩ من يوليو ١٩٥٢ ص ١١٢٣ ضمن المؤلفات الكاملة . مدريد ، جريدوس جـ ٢ (١٩٧٢) ص ٣٩٩ – ٤١١ .

(٤٠) سأتناوله فى الفصل التالى . (السابع) ص ١٧٣ – ١٩٦ .

ملحق نص الرسالتين كما جاء في كتاب روضة الأنس

قال في " كتاب روضة الأنس " ما نصه :

ويتعلق بهذا الباب ما خاطبني به الفقيه الجليل أبو بكر البرذعي من أهل بلدنا ، أعزه الله : يا سيدي ، أخبرك بخبر عجاب ، إذ لا سر دونك ولا حجاب ، بعد أن أتقدم إليك أن لا تجعل اللوم إليّ ، قبل علم ما لديّ ، وأن الدهر أخدع من كفة الحابل ، وقلب الإنسان للآفات قابل .

مشيت إلى سوق الرقيق ، لآخذ حق فؤاد حنيق ، فرأيت به جارية عسجدية اللون ، حديثة عهد بالصون ، متمايلة القد ، قائمة النهد ، بلحظ قد أوتي من السحر أوفر حظ ، وفم كشرطة رشحت بدم ، داخله سمطان لولاهما ما عرف النظم ، ولا حكم على الدر العظم ، في صدغيها لامان ما خط شكلهما قلم ، ولا قص مثلهما جلم ، لها جيد تتمناه الغيد ، وخصر هو قبضة الكف في الحصر ، وردف يظلمه من يشبهه بالحقف ، ويدان خلقتا للوشي ، وقدمان أهلتا للثم لا للمشي ، فتطاولت إليها الأعناق ، وبذلت فيها الأعلاق ، والمياسير عليها تعزم في القوم ، وتسوم أغلى السوم ، وكلٌ فيها يزيد ، ليبلغ ما يريد ، إلى أن جاء فتى صادق في حبه ، لا يبالي بفساد ماله في صلاح قلبه ، فعد المال عدا ، ولم يجد غيره من التسليم بدا ، فلما فاتتني تركت الأشواق القوم وأتتني ، وانتقضت عزائم صبري فما أتتني ، فالله الله تدارك أخاك سريعا ، قبل أن تلفيه من الوجد صريعا ، واشتر له خادما ، قبل أن تصبح عليه نادما ، ولن أحتاج أن أصفها إليك ، مع ما نصصته عليك .

وقد أهديتها دررا فخذها ... على جهة الفكاهة والدعابه

ولا تطلع أخا جهلٍ عليها ... فمن لم يدْرَ قدر الشيء عابه

فأجبته : نعم . نعم . أنعم الله بالك ، وسنى آمالك ، أنا بحول الله أرتاد لك من نحو هاتيك ، ما يسليك ويوتيك ، وإلا فبيضاء كاللجين ، ملء القلب والعين ، زهرة غصن ، في روضة حسن ، ذات ذوائب ، تدع النفوس ذوائب ، كأنها ليل على نهار ،

أو بنفسج فى بهار ، لها وجه أبهى من الغنى ، وأشهى من نيل المنى ، فيه حاجبان كأنهما قوس صنعت من السبج ، ورصعت بعاج من البلج ، على عينين ساحرتين ، بالعقل ساخرتين ، بهما تصاب الكبود ، وتشق القلوب قبل الجلود ، إلى فم كأنه ختام مسك ، على نظام سلك ، سقاه الحسن برحيقه ، فأنبت دره فى عقيقه ، وجيد ، فى الحسن وحيد ، على صدر كأنه من مرمر ، فيه حقتا عاج طوقت بعنبر ، قد خلقتا للعض ، فى جسمٍ غض ، له خصر مدمج ، وردف يتموج ، وأطراف كالعنم ، رقمت رقم القلم . من اللائى شهدن ابن المؤمل ، وقال فى مثلها الأول :

إن هى تاهت فمثلها تاها	أوهى باهت فمثلها باها
من أين للغصن مثل قامتها	أو أين للبدر مثل مرآها
ما فعلت بالقلوب صابية	ما فعلت فى القلوب عيناها
تملكنى بالهوى وأملكها	فهـا أنا عبدها ومولاها

فأيهما شئت بذلت فيه الجهد ، وأرضيت الجد والود ، إن شاء الله تعالى ، وأنا فيما عرض لسيدى (حفظه الله) على ما يجب ، وأعزه ولا أعذله ، وأنصره ولا أخذله ، لكنى أقول كما قال بعض الحكماء : لا ينبغى لمن قلبه رقيق ، أن يدخل سوق الرقيق ، إلا أن يكون من جمع من المال والجمالِ ، يتنافس فى العالى ، ويسترخص بالثمن الغالى ولا يبالى ، بمن قال لائمه إذا وجد من يلائمه ، كما قال الشاعر :

ما انتفاع المحب بالمال إن لم	يتوصل به لوصل الحبيب
إنما ينبغى بحكم الهوى أن	ينفق المال فى صلاح القلوب

والسلام على سيدى ما كانت الفكاهة شأن الوفاء ، والمداعبة من شيم الظرفاء ، ورحمة الله وبركاته .

الفصل السابع

مقامة العيد لابن المرابع الأزدى

خصص ابن الخطيب فصلا مطولا من كتابه "الإحاطة" (١) ، يضم - كالعادة - مختارات من الشعر ، ونص مقامة لأحد معاصريه هو الأديب ابن المرابع الأزدى الذى أتحدث عنه فى هذا الفصل ، نعلم كذلك أن ابن الخطيب ترجم له فى كتاب آخر هو "التاج المحلى" (٢) ، وقد كرر إحدى فقراته فى «الإحاطة» ، أما المقرى فى الجزء الثانى من "نفح الطيب" (٣) فقد استغل الترجمة الخاصة بابن الأزدى الموجودة فى الإحاطة ، مستخدما إحدى مخطوطات هذا الكتاب ، التى تضم مختارات له من الشعر أكثر من التى ظهرت فى مخطوطة الاسكوريال ، واستغنى المقرى - مع ذلك - عن المقامة وإن كان لم يستغن عن أخبار كاتبها التى هى عبارة عن صورة له ، وتقييم لموهبته الأدبية أكثر مما هى ترجمة .

إن المواد المشار إليها تبدو هى الرسائل الوحيدة الممثلة لصاحبنا الأديب ، اسمه كاملا عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدى يكنى بأبى محمد ، ويعرف بابن المرابع (٤) ، ولد فى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر فى بلش من أعمال مالقة ، وتوفى فى المدينة نفسها فى أواسط القرن الرابع عشر (٥) .

يترجم له ابن الخطيب بقوله : "من نبهاء أدباء البادية ، خشن الظاهر ، منطو على لوذعية ، متوارية فى مظهر جفوة ، كثير الانطباع عند الخبرة ، قادر على النظم والنثر ، متوسط الطبقة فيهما ، مسترفد بالشعر ، سيال القريحة ، مرهوب الهجاء " ، وعبارة ابن الخطيب التالية فيها بعض غموض ، ويفهم منها أنه كان مشهور المكان ببلده ، يعيش حياة متواضعة ، ليس فيها كثير من الكبرياء ، ثم يضيف : " وجد بذلك وقته ، يوسط رقاعته ، فتنجح الوسيلة ، ويتمشى له بين الرضا والسخط الغرض ." بعد ذلك يقدم ابن الخطيب فقرة نقلها حرفيا فى كتابه التاج المحلى = (نفح الطيب حـ ٨ ص٣٦٣) ، وقد ألمحنا إلى ذلك ، يقول :

" شاب في الأدب وشب ، ونشق ريح البيان لما هب ، فحاول رقيقه وجزله ، وأجاد جده وأحكم هزله ، فإن مدح صدح ، وإن وصف أنصف ، وإن عصف قصف ، وإن أنشأ ودون ، وتقلب في أفانين البلاغة وتلون أفسد ما شاء الله وكون " .

ثم يستطرد ابن الخطيب فيقول : « فهو شيخ الطريقة الأدبية وفتاها ، وخطيب حفلها كلما أتاها ، لايتوقف عليه من أغراضها غرض ، ولايضيع لديه منها مفترض ، ولم تزل بروقه تتألق ، ومعانيه بأذيال الإحسان تتعلق ، حتى برز في أبطال الكلام وفرسانه ، وذعرت القلوب بسطوة لسانه ، وألقت إليه الصناعة زمامها ، ووقفت عليه أحكامها "(٦) .

ولأسباب نجهلها ، ربما لكي يبتعد عن الأعيان الذين وجه إليهم قصائده ، ولم يتلق منهم أية صلة ، أو لأنه هجاهم هجاء مقذعا فتبعوه - رحل الأزدي إلى شمال إفريقيا ، لاندري متى ولا إلى أين ، ربما كان في أواخر حياته - ربما كان هذا سببا آخر يعلل غربته - في الوقت الذي لاتجدي شيئا قصائده ، وحين أضاع مكانته بين مواطنيه ، كان الجد مناهضا له - على كل حال - في الشاطئ الآخر من المضيق ، وكان عليه أن يئوب إلى وطنه حسب ما يرويه ابن الخطيب :

" وعبر البحر منتجعا بشعره ، ومنفقا في سوق الكساد من سعره ، فأبرق وأرعد ، وحذر وأوعد ، وبلغ جهد إمكانه في التعريف بمكانه ، فما حرك ولاهز ، وذل في طلب الرفد وقد عز ، وما برح أن رجع إلى وطنه الذي اعتاده رجوع الحديث إلى قتادة " .

ندري أنه كان على علاقة صداقة بكبار الشخصيات ، وبناء على رغبة أبي عبد الله محمد الرابع سادس السلاطين النصريين [٧٢٥ - ٧٣٣ = ١٣٢٥ - ١٣٣٣] ارتجل بعض أبيات في الشعر من بحر الطويل ، نقلها إلينا المؤرخون (٧) يصف فيها جبل [شلير] كلله البرَد ، مقارنا بينه وبين هرم بملابس بيضاء ، مستخدما الأقوال المطروقة ، والمعهودة عن موضوع الزمن ، مع المدح المعتاد لعظمة الملك ، ووجه مقامة للرئيس أبي سعيد فرج (٨) أمير مالقة ، وفاتح سبتة ، وصهر محمد الثاني ، ووالد أبي الوليد إسماعيل الأول الذي سوف ندرسه فيما بعد ، ونظم مرثية لوالد ابن الخطيب وأخيه اللذين استشهدا في واقعة طريف [٧٤١ = ١٣٤٠] جاءت

فى بحر الكامل وأرسلها إلى الوزير الذى رد علية شاكرا بقصيدة من الوزن والروى ذاته (٩) ورفع قصيدة أخرى من اثنين وثلاثين بيتا من بحر الطويل فى نهاية سنة [٧٤٩ = ١٣٤٩] إلى ابن الخطيب قبل موت صاحبنا بقليل عندما تقلد الأخير خطة الإنشاء وخططا أخرى (١٠) .

حدد ابن الخطيب تاريخ وفاة ابن المرابع الأزدى فى بلده بلش بمالقة حيث دفن فى نهايات السنة ٧٥٠ = ١٣٥٠ بسبب الوباء (١١) وهو الوباء الذى اجتاح العالم فى أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وقد أوحى إلى بوكاشيو فكتب الديكامرون ، وقد تناول هذا الوباء كتاب أندلسيون مثل ابن خاتمة فى ألمرية (١٢) وابن الخطيب (١٣) .

هذا كل ما ندريه عن حياته ، أما عن بعض أعماله التى وصلتنا فضلا عن شعره التقليدى - فإنه توجد بعض أبيات استسلم فيها إلى محسنات بديعية ذات طابع باروكى جدا حتى بالنسبة لذوق الحقبة ، حقبة الانحطاط الأدبى (١٤) ، وقد أشار إلى هذا ابن الخطيب فى كلمات ترجمتها آنفا ، ومن طابع آخر ، فإنه - على العكس - فى مرثيته لديكه الذى مات ، يبدو فى أسى هائل بسبب هذا(١٥) ، مرثية الديك لها سابقة فى الأدب الأندلسى (١٦) ، حفظ لنا ابن خير نبأ قصيدة نعتها بأنها غريبة حول الموضوع ذاته ، نظمها أبو الفرج على بن محمد بن حسن القرشى ، وهى فيما يبدو حظيت بشهرة لا بأس بها ، وها هى قصيدة ابن المرابع الأزدى : (*)

أودى به الحتف لما جاءه الأجل	ديكا فلا عوض منه ولا بدل
وقد كان لى أمل فى أن يعيش فلم	يثبت مع الحتف فى بغيالها أمل
فقدته ، فلعمرى إنها عظة	وبالمواعظ تذرى دمعها المقل
كأن مطرف وشى فوق ملبسه	عليه من كل حسن باهر حلل
كأن إكليل كسرى فوق مفرقه	وتاجه فهو عالى الشكل محتفل

(*) جاءت هذه القصيدة شديدة الاضطراب وزنا فى تحقيق عبد الله عنان - كما هى العادة - وقد حاولنا إصلاح خللها وإقامة وزنها دون بُعد عن الأصل - المترجم .

مؤقت لمن يكن يطرق له خطأ ... فيما يرتل من ورد ولا خطل (*)

كأن زرقيل فيما مر علمه ... علم المواقيت فيما رتب الأول [١٧]

يرحل الليل يحيى بالصراخ فيما ... يصده كلل عنه ولا ملل

رأيته وهنت منه القوى فهوى ... للأرض فعلا يريه الشارب الثمل

لو يفتدى بديوك الأرض قل له ... ذاك الفداء ، ولكن فاجأ الأجل

قالوا الدواء فلم يغن الدواء ولم ... ينفعه من ذاك ما قالوا وما فعلوا

أمّلت فيه ثوابا أجر محتسب ... إن قلت ذلك صح القول والعمل

لكن المظهر الأهم لابن المرابع هو صلته بشعراء آخرين مستهترين فى كثير أو قليل فى حياتهم وفى نتاجهم ، أكثرهم شهرة سلفه ابن قزمان ، وقد ظلوا إلى أواخر إسبانيا الإسلامية ، يحدثنا ابن الخطيب أن ابن المرابع كان يعيش من شعره ، بمعنى أنه كان محترفا للشعر ، ليس له عمل معروف غيره ، لكنه لم يكن شاعر بلاط - كما حدث فى كل العصور فى كل بلاد الإسلام - موقوفا على مدح الحضرة النصرية ، فإنه كان قد استطاع - فى وقت ما - أن يحظى بحماية أحد الملوك ، وإذا كان قد استطاع أن يحصل على رزق كاف لأنه عين فى منصب ما فى الدولة ، فإن هذا ولاذاك لا نحسب أنه قد استمر فيه أ، دا طويلا ، فالقيد لايتفق وطبيعته ، وقد رماه من وراء ظهره لكى يحيا حياته هو « بحث عبر الشعر عن وسائل عيشه » مع الشعر أو مع وسائل أخرى على هامش السنة ، ومع احتيالات من كل لون حسب الملابسات ، ووفق الإلهام وعضة الجوع ، إلى هذا أشار ابن الخطيب حين تحدث عنه بوصفه ممثلا حقيقيا للطريقة الأدبية ، وهو مرادف لقولنا الطريقة الساسانية [١٨] التى لدينا عنها شاهد فى مؤلفات شاعر آخر من مالقة فى منتصف القرن الخامس عشر هو الفقيه عمر الذى أتحدث عنه فى الفصل التالى [١٩] .

(*) لا أتفق مع المؤلف فى ترجمته هذا البيت إلى الإسبانية - المترجم .

في خط الصعاليك هذا ، وبأهداب أديب يغنم العيش بحيله وشعره ، نجد هذا الشاعر من بلش من أعمال مالقة ابن المرابع الأزدي ، أوضح النماذج حين أدرج ابن الخطيب في إحاطته نصا من مقامة لصاحبنا الأديب – نعرف أنه كتب غيرها – (٢٠) ألفها لهدف واحد – كما يلاحظ في الخاتمة – حين سأل حملا يضحي به في عيد الأضحى ، ورفع المقامة إلى الأمير أبي سعيد فرج .

هذه المقامة التي لم تستحق شرف ضم المقري لها في مصنفاته – بقيت مخطوطة إلى أن رأى صديقي العزيز الأستاذ المصري أحمد مختار العبادي أثناء إقامته في إسبانيا دارسا أن ينشرها – وهي فكرة جيدة – قدم لها بدراسة رصينة في اللغة العربية حول هذا النوع من المقامات ، وعن تأثيرها المحتمل في القصة البيكارسكية في الأدب الإسباني (٢١) ، لم يقل شيء جديد بهذا الصدد ، لكن في المقال شيئا مهما هو وقوف القارئ العربي على المشكلة المطروحة منذ زمن ، وبدون حل حتى الآن ، وقد قدم الأستاذ ليفي بروفنسال إشارة موجزة إلى مقال الدكتور العبادي ، ووصف المقامة بأنها ذات « DE STYLE ET COULANT » (٢٢) .

لم يكد الدكتور العبادي يستخدم المعلومات التي لديه ليتحدث عن كاتب هذه المقامة ، بل إنه خصص له سطورا قليلة فحسب محيلا إلى الإحاطة ونفح الطيب ، وبحسه مؤرخا أدرك قيمة العمل التاريخية بوصفه صورة للمجتمع الغرناطي ، وإنني أعتقد – مع ذلك – أن الأهمية الكبرى لهذه المقامة التي لا تحمل أسماء والتي وضع لها الناشر عنوان « العيد » تكمن بالذات في قيمتها الأدبية ؛ لأن النصوص التي وصلت إلينا من هذا النوع قليلة ، بما فيها النصوص غير المنشورة ، وإن كانت لدينا أخبار عن مخطوطات كثيرة ، وفي نيتي أن أمضي لدراستها ، باعتبارها عملا تمهيديا للعثور على قيمة أدبية محتملة في النثر الفني في الأندلس ، وإنني أنشر فيما يلي ترجمة مقامة العيد التي كان علي أن أغالب بعض الصعوبات ، وأخشى ألا أكون قد تغلبت عليها جميعا ، رشاقة الحوار واضحة في الأصل ، برغم أن المقامة كتبت – كما هو لازم – في نثر مسجوع يستعين بكل الجماليات ، وبما أن المقامة عبارة عن نص كتب في مناسبة كتبها المؤلف في سرعة عاجلة ، ضائقا بحلول العيد وشيكا ، فإنه لم يأبه بأية عوارض ، وعند مجابهته بالروي كان مضطرا لاستخدام قافية محددة ، وقد كتب مرات متعددة الكلمة الأولى التي تطفر إلى ذهنه ، ويحذف هذا العنصر من

الترجمة - ولنقل العنصر الموسيقى - تبقى الحواشى الخجلى عارية ، ولهذا فقد تصرفت فى بعض الأحيان تصرفا يسيرا فى المعنى ، لكى أجد شيئا ، لكن فى أحيان أخر تركت الأصل كما هو ، لكيلا أخون النص الأصلى خيانة كبيرة ، ولنعد إلى الحوار الذى جاء فى معظمه مقطوعا ، أمر يجعل المرء يفكر فى لغة المسرح ، ولكى أهرب من التكرار المقيت فى الفعل «قال» فقد أدمجته فى الترجمة محددا إياه فى كل مقام ، ووضعته بين الجملة التى يجىء فيها .

أود أن أبرز الصورة البارعة لشخصية الزوجة ، لا تكاد تكون موصوفة لكنها تخال - قبل كل شىء - من خلال ما تقوله ، إنه السخط ذاته الذى تتسم به المرأة أحيانا فى الأدب الإسبانى فى العصر الوسيط - فلنتذكر كاهن طلبيرة - فى ذلك التيار الذى يهجوها إزاء تيار آخر يمجدها ، يمثل دون ألبرو دى لونا التيار الثانى .

أعتقد أنى أرى فى المقامة أيضا - وإن كانت موضوعة فى قالب قديم ، وإن كان ما يحكيه لنا البطل خيالا - صورة المؤلف وظهارته المريرة ، مرارة الرجل الذى يرى كل الأبواب مصفدة أمامه ، يعضه الجوع ، ولايستطيع من خلال حيله - التى تبوء بالإخفاق جميعها - أن يبلغ ما يريغه ، إنه يبدو لى رجلا متخاذلا يطلب صدقة أكثر مما هو فنان يحاول الحصول على جائزة عمله .

بجانب طبعة مختار العبادى (٢٣) فقد انتشرت صورة مخطوط «الإحاطة» فى الاسكوريال (٢٤) والصورة المخطوطة التى قام بها فى القرن الثامن عشر دون خوان أمون دى سان خوان المحفوظة فى المكتبة الوطنية فى مدريد (٢٥) ،وقد كان صديقى العزيز الدكتور محمود على مكى - الذى أزجى له كل شكرى - كريما معى فى اقتراحه علىَّ بعض تصويبات فى النص ، وفى توجيهى لترجمة بعض العبارات التى ماكنت أرى معناها واضحا .

لنترك الآن ابن المرابع الأزدى الصعلوك الساخر يروى لنا مغامراته :

هوامش

(١) أقصد دائما مخطوط الاسكوريال رقم ١٦٧٣ فى فهرس ديرنبورج ، راجع ص ٢٢٦ - ٢٣٠ .

(٢) العنوان بالكامل هو « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » . عن هذا الكتاب راجع GAL جـ ٢ ص ٢٦٢ ، H . ديرنبورج . المخطوطات العربية فى الاسكوريال جـ ١ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، راجع نفح الطيب جـ ٨ ٣٦٣ .

(٣) راجع المجلد السادس ص ٣١٥ وما بعدها والمجلد الثانى ص ٢٠٩ وما بعدها وص ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

(٤) الإحاطة ص ٢٢٦ .

(٥) الإحاطة ص ٢٣٠

(٦) الإحاطة ص ٢٢٦ ،نفح الطيب جـ ٨ ص ٣٦٣ .

(٧) الإحاطة ص ٢٢٧ ، ونفح الطيب جـ ٨ ص ٢١٣ ، ترجم هذا الشعر الدكتورة ماريا باث توريس بالومو في عمل موجز ، نشر فى Miscelánea للدرسات العربية والعبرية فى غرناطة عدد ٢١ مجلد أول عام ١٩٧٢ ص ١٦٩ - ١٧١ ، بعنوان ابن المرابع الأزدى شاعر جبل شلير ، وقد ذكرت صفحاتى هذه بالطبع ، والتى نشرت أول مرة سنة ١٩٦٢ ، ولست أفهم - والحالة هذه - كيف تقول أنها قد عثرت بالمصادفة على هذه الأبيات (وهى ثمانية بالمناسبة) فى مخطوط الإحاطة .

(٨) راجع عن هذا الأمير : ابن خلدون . تاريخ البربر ، ترجمة سلان . باريس ١٩٥٦ مجلد ٤ ، وبخاصة ص ١٥٩ - ١٦١ و ٤٧٠ ، ٤٧١ ، وانظر أيضاً : ف . جيين روبلس . مالقة الإسلامية . مالقة ١٨٨٠ ص ١٨٠ وما بعدها .

(٩) توجد فى نفح الطيب جـ ٦ ص ٣١٥ - ٣١٧ ، ولا توجد فى مخطوط الإحاطة بالاسكوريال وإن كان المقرى يؤكد - فى وضوح - أنه قد استقاها فى ترجمة الأزدى فى الإحاطة .

(١٠) راجع نفح الطيب جـ ٨ ص ٢٠٩ - ٢١١ .

(١١) الإحاطة ص ٢٣٠ ، والخبر - فى اختصار - موجود أيضا فى نفح الطيب جـ ٨ . ص ٢١٣ .

(١٢) كتب مصنفا بعنوان : تحصيل الغرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد ، انظر : بروكلمان وجال . ملحق ٢ ص ٣٦٩ ، ومؤلف طه دنانة الذى ذكره بروكلمان استخدمه الدكتور خوسيه فرنارت فى مقاله " شيء عن دراسة الطب العربى الإسبانى ، ابن خاتمة السمرى " فى مجلة غرناطة " أكتواليداد ميديكا عدد ٣٤ سنة ١٩٥٨ ، ص ٤٩٩ - ٥١٣ و ٥٦٦ - ٥٨٠ .

(١٣) مصنف ابن الخطيب عنوانه : مقنعة السائل عن المرض الهائل . راجع بروكلمان وجال ملحق ٢ ص ٣٧٢ .

(١٤) انظر مثلا نفح الطيب جـ ٨ ص ٢١١ ، ٢١٢ .

(١٥) الإحاطة ص ٢٢٧ ، ومنقولة فى نفح الطيب جـ ٨ ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

(١٦) ابن خير . فهرسة ص ٤١٢ ، ٤١٣ ، وترد بعد هذا الخبر مرثية أخرى فى وفاة حمار .

(١٧) تظهر فى نفح الطيب هكذا زرقال ، وفى مخطوط الإحاطة زرقيل ، صورة محتملة لم يرحب بها خ . ماريا ميّاس بايكروسا فى دراسته عن الزرقيل . مدريد وغرناطة ١٩٤٣ - ١٩٥٠ ص ١٥ ، ١٧ .

(١٨) أوبنو ساسان . عن أصلهم انظر ماسياتى ص ٢٠٧ هامش ١٢ .

(١٩) سياتى ص ٢٠١ - ٢٣٠ ، راجع ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .

(٢٠) راجع الإحاطة ص ٢٧٧ .

(٢١)أحمد مختار العبادى ، مقامة العيد لابن محمد عبد الله الأزدى ، صورة من صور الحياة الشعبية فى غرناطة ، مجلة معهد الدرسات الإسلامية - مدريد عدد ٢ سنة ١٩٥٤ ، ص ١٥٩ - ١٧٣ فى القسم العربى ، وفى القسم الإسبانى المختصر ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢٢) راجع Arabica ٢ سنة ١٩٥٥ ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢٣) يوجد نص المقامة فى ص ١٦٨ - ١٧٣ فى المقال السالف الذكر .

(٢٤) المخطوط المذكور ص ٢٢٧ - ٢٣٠ .

(٢٥) المخطوط رقم ٢٧ فى فهرس المخطوطات العربية الموجودة فى المكتبة الوطنية فى مدريد . صنفه جيين رويلس ، مدريد ١٨٨٩ الرقم الحالى للمخطوط هو ٤٨٩١ ، ويوجد نص المقامة فى ص ٤٣٥ - ٤٣٨ .

مقامة العيد

يقول شاكر الأيادى ، وذاكر فخر كل نادى ، وناثر غرر الغرر للعاكف والبادى ، والرائح والغادى ، اسمعوا منى حديثا تلذه الأسماع ، ويستطرفه الاستماع ، ويشهد بحسنه الإجماع ، وهو من الأحاديث التى لم تتفق إلا لمثلى ، ولا ذكرت عن أحد قبلى ، وذلك يا معشر الألفاء والخلصاء والأحباء ، أنى دخلت فى هذه الأيام دارى ، فى بعض أدوارى ، لأقضى من أخذ الغذاء أوطارى ، على حسب أطوارى ، فقالت لى ربة البيت ، لم جئت ولم أتيت ؟ قلت جئت لكذا وكذا ، فما الغذا ؟ قالت لا غذا لك عندى اليوم ، ولو أودى بك الصوم ، حتى تسل الاستخارة ، وتفعل كما فعل زوج الجارة ، طيب الله بخاره ، وملأ بالأرزاق وجاره ، قلت وما فعل ؟ خبرينى ، وأرينى فى العلامة ما أحببت تريني ، قالت إنه فكر فى العيد ، ونظر فى أسباب التعييد ، وفعل فى ذلك ما يستحسنه القريب والبعيد ، وأنت قد نسيت ذكره ، ومحوته من بالك ، ولم تنظر إليه نظرة بعين اهتبالك ، وعيد الأضحى فى اليد ، والنظر فى شراء الأضحية اليوم أوفق من الغد .

قلت صدقت ، وبالحق نطقت ، بارك الله فيك ، وشكر جميل تحفيك ، ولقد نبهت بعلك لإقامة السُّنَّة ، ورفعت عنه فى الغفلة هنَّة ، والآن أسير لأبحث عما ذكرت ، وأنظر فى إحضار ما إليه أشرت ، ويتأتى ذلك إن شاء الله بسعدك ، وتنالين فيه من بلوغ الأمل غاية قصدك ، والجد ليس فى الهزل ، والأضحية للمرأة وللرجل الغزل ، قالت دعنى من الخرافات ، وأخبار الزرافات ، فإنك حلو اللسان ، قليل الإحسان ، اتخذت الغربة صحبتك آل ساسان ، فتهاونت ... وأسأت فيمن أساء ، وعودت أكل خبزك فى عقر منديل ، وإيقاد الفتيل دون قنديل ، وسكنى الخان ، وعدم ارتفاع الدخان ، فما تقيم موهما ، ولا تعرف له مبسما ، وأخذت معى فى ذلك بطويل وعريض ، وكلانا فى طرفى نقيض ، إلى أن قلت لها : إزارك وردائى ، فقد تفاقم بك أمر دائى ، وما أظنك إلا بعض أعدائى ، قالت : مالك والإزار ، شط بك المزار ، لعلك تريد إرهانه فى الأضحية والأبزار ؟ اخرج عنى يا مقيت ، لا عمرت معك ولا بقيت ، أو عدمت الدين ،

وأخذ الوزر بالعين ، يلزمنى صوم سَنة ، لا أغفيت معك سِنة ، إلا إن رجعت بمثل ما رجع به زوج جارتى ، وأرى لك الربح فى تجارتى ، فقمت عنها وقد لوت رأسها وولولت ، وابتدرت وهرولت ، وجالت فى العتاب وهوّلت ، وضمت بنتها وولدها ، وأقامت باللجج والانتصار بالحجج أودها ، فلم يسعنى إلا أن عدوت أطوف السكك والشوارع ، وأبادر لما غدوت بسبيله وأسارع ، وأجوف الآفاق ، وأسأل الرفاق ، وأخترق الأسواق ، وأقتحم زريبة بعد زريبة ، وأختبر منها البعيدة والقريبة ، فما استرخصته استنقصته ، وما استغليته استعليته ، وما وافق غرضى ، اعترضنى دونه عدم عرضى ، حتى انقضى ثلثا يومى ، وقد عييت بدورانى وصومى ، وأنا لم أحصل من الابتياع على فائدة ، ولا عادت علىّ فيه من قضاء الأدب عائدة ، فأومأت للإياب ، وأنا أجد من خوفها ما يجد صغار الغنم من الذئاب ، إلى أن مررت بقصّاب فى مجزرة ، قد شد فى وسطه مجزرة مبززة ، وقصر أثوابه حتى كشف عن ساقيه ، وشمر عن ساعديه ، حتى أبدى مرفقيه ، وبين يديه ، عنز ، قد شد يديه فى روقيه ، وهو يجذبه فيبرك ، ويجره فما يتحرك ، ويروم سيره فيرجع القهقرى ، ويعود إلى ورا ، والقصاب يشد على إزاره ، خيفة من فراره ، وهو يقول : آه له من جان باغ ! وشيطان طاغ ، ما أشده ! وما ألده ! وما أحده ! وما أكثره بشحم ! وما أطيبه بلحم ! الطلاق يلزمه من كان عاين تيسا مثله ، أو أضحية تشبهه قبله ، وأضحية حفيلة ، ومنحة جليلة ، هنا الله من رزقها ، وأخلف عليه رزقها ، فاقتحمت المزدحم أنظر مع من نظر ، وأختبر فيمن اختبر ، وأنا والله لا أعرف فى التقليب والتخمين ، ولا أفرق بين العجيف والسمين ، غير أنى رأيت صورة دون البغل وفوق الحمار ، وشكلا يخبرك عن صورة العمار ، فقلت للقصاب ، كم طلبك فيه ، على أن تمهل الثمن حتى أوفيه ؟ فقال ابغنى فيه أجيرا ، وكن له الآن من الذبح مجيرا ، وخذه بما يرضى لأولى التقضى . قلت استمع الصوت ، ولا تخف الفوت ، قال ابتعه منى نسيئة ، وخذه هدية ، قلت نعم فسق لى الضمير ، وما ماكسنى فيه بالنقير والقطمير ، قال تضمن لى فيه عشرين كبارا ، أقبضها منك لانقضاء الحول دينارا دينارا ، قلت إن هذا لكثير ، فاسمح منه بإحاطة اليسير ، قال والذى خلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لا أنقصك من هذا وما قلت سمسمة ، اللهم إن شئت السعة فى الأجل ، فأقضى لك ذلك دون أجل ، فجلبنى للابتياع منه الإنساء فى الأمد ، وغلبنى بذلك فلم أفتقر معه لرأى والد ولا ولد ، ولا أحوجت نفسى فى ذلك لمشورة أحد ، وقلت قم ،

اشتريته منك فضع البركة ، ليصح النجح فى الحركة ، فقال ففيه ، بارك الله فيه ، وقد بعته لك ، فاقبض متاعك ، وثبت ابتياعك ، وها هو فى قبضتك ، فاشدد وثاقه ، وهلم لنعقد عليك الوثاقة ، فانحدرت معه لدكان التوثيق ، وابتدرت من السعة إلى الضيق ، وأوثقنى بالشهادة تحت عقد وثيق ، وحملنى من ركوب الدين ولحاق الشين فى أوعر طريق ، ثم قال لى هذا تيسك فشأنك وإياه ، وما أظنك إلا تتهياه ، وآت بحمالين أربعة ، فإنك لا تقدر أن ترفعه ، ولا يتأتى لك أن يتبعك ولا أن تتبعه ، ولم يبق لك من الكلفة إلا آن يحصل فى محلك ، فيكمل سرور أهلك ، وانطلقت للحمال وقلت هلم إلىّ ، وقم الآن بين يدىّ ، حتى انتهينا إلى مجزرة القصاب ، والعنز يطلب فلا يصاب ، فقلت : أين التيس يا أبا أويس ؟ قال إنه قد فر ، ولا أعلم حيث استقر ، قلت أتضيع على مالى لتخيب آمالى ؟ والله لأنحرنك بالعصا ، كمن عصا ، ولأرفعنك إلى الحكام ، تجرى عليك منهم الأحكام ، قال مالى علم به ، ولا بمنقلبه ، لعله فر لأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، فعليك بالبريح ، فانحدرت أنادى بالأسواق ، وجيران الزقاق ، من ثقف لى تيسا فله البشارة ، بعدما آتى بالأمارة ، وإذا برجل قد خرج من دهليز ، وله هرير وهزيز ، وهو يقول من صاحب العنز المشئوم ؟ لاعدم به النوم ، إن وقعت عليه عينى ، يرتفع الكلام بينه وبينى ، قلت أنا صاحبه ، فما الذى دهاك منى ، أو بلغك عنى ؟ قال إن عنزك حين شرد ، خرج مثل الأسد ، وأوقع الرهج فى البلد ، وأضر بكل أحد ، ودخل فى دهليز الفخارة فقام فيه وقعد ، وكان العمل فيه مطبوخا ونيا ، فلم يترك منه شيّاً ، ومنه كانت معيشتى ، وبه استقامت عيشتى ، وأنت ضامن مالى ، فارتفع معى للوالى ، والعنز مع هذا يدور وسط الجمهور ، ويكر كرة العفريت المزجور ، ويأتى بالكسر على ما بقى فى الدهليز من الطواجن والقدور ، والخلق قد انحشدوا للضجيج ، وكثر العياط والعجيج ، وأنت تعرف عضرطة الباعة ، وما يحوون من الوضاعة ، وأنا أحاول فى أخذه ما أستطيع ، وأروم لإطاعته من غير مطيع ، والباعة قد أكسبته من الحماقة ، مالم يكن لى به طاقة ، ورجل يقول المحتسب ، وأعرف ما تكتسب ، وإلى من تنتسب ، فقد كثر عنده بك التشكى ، وصاحب الدهليز قبالته يبكى ، وقد وجد عليك الشكوى ، وأيقن أنك كسرت الدعوى ، وأمر بإحضارك ، وهو فى انتظارك ، فشد وسطك ، واحفظ إبطك ، وإنك تقدم على من فتح باعه للحكم على الباعة ، ونصب لأرباب البراهين ، على

أرباب الشواهين ، ورفع على طبقه ليملأ طبقه ، ثم أمسكنى باليمين ، حتى أوصلنى للأمين ، وقال لى أرسلت التيس للفساد ، كأنك فى نعم الله من الحساد ، قلت إنه شرد ، ولم أدر حيث ورد ، قال ولم لا أخذت ميثاقه ، ولم تشدد وثاقه ؟ يا شرطى ! طرده ، واطرح يدك فيه وجرده ، قلت أتجردنى الساعة ولست من الباعة ؟ قال لابد من ذاك ، أو تضمن ما أفسده هناك ، قلت الضمان الضمان ، والأمان الأمان ! قال قد أمنت إن ضمنت ، وعليك الثقاف ، حتى يقع الإنصاف ، أو ضامن كاف ، فابتدر أحد إخوانى ، وبعض جيرانى ، فأدى عنى ما ظهر بالتقدير ، وآلت الحال للتكدير ، ثم أردت الانصراف بالتيس لا كان كيانه ... وإذا بالشرطى قد دار حولى ، وقال لى كافِ فعلى ، بأداء جُعلى ، فقد عطلت من أجلك شغلى ، فلم يك عندى ما نكسر سورته ، ولا بما نطفئ جمرته ، فاسترهن ميسورتى بيته ليأخذ ما بته ، وتوجهت لدارى ، وقد تقدمت أخبارى ، وقدمت بغبارى ، وتغير صغارى وكبارى ، والتيس على كاهل الحمال يرغو كالبعير ، ويزأر كالأسد إذا فصلت العير ، فقلت للحمال أنزله على مهل ، ألتعييد قد استهل ، فحين طرحه فى الاسطوان ، كر إلى العدوان ، وصرخ كالشيطان ، وهم أن يقفز الحيطان ، وعلا فوق الجدار ، وأقام الرهجة فى الدار ، ولم تبق فى الزقاق عجوز إلا وصلت لتراه ، وتسل عما اعتراه ، وتقول بكم اشتراه ؟ والأولاد قد أرهقهم لهفه ، ودخل قلوبهم خوفه ، فابتدرت ربة البيت ، وقالت كيت وكيت ، لا خل ولا زيت ، ولا حى ولا ميت ، ولا موسم ولا عيد ، ولا قريب ولا بعيد ، سقت العفريت إلى المنزل ، ورجعت بمعزل ، ومن قال لك اشره ما لم تره ؟ ومن قال لك سقه حتى توثقه ؟ ومتى تفرح زوجتك والعنز أضحيتك ؟ ومتى تطبخ القدور ، وولدك منه مغدور ؟ وبأى قلب تأكل الشوية ، ولم تخلص لك فيه النية ؟ واقلة سعدها ! واخلف وعدها ! والله لو كان العنز ، يخرج الكنز ، ما عمر لى دارا ، ولا قرب لى جوارا ، اخرج عنى بالكع ، فعل الله بك وصنع ! وما حبسك عن الكباش السمان ، والضأن الرفيعة الأثمان ، يا قليل التحصيل ، يا من لا يعرف الخياطة ولا التفصيل ! أدلك على كبش سمين ، واسع الصدر والجبين ، أكحل عجيب ، أقرن مثل كبش الخطيب ، يعبق من أوداكه كل طيب ، يغلب شحمه على لحمه ، ويسيل الودك من عظمه ، قد علف بالشعير ، وبدر عليه أحسن تدبير ، لا بالصغير ولا بالكبير ، تصلح منه الألوان ، ويستطرف شواه فى كل أوان ،

ويستحسن ثريده وقديده فى سائر الأحيان ؟ قلت بينى لى قولك ، لم لا نعرف فعلك ، وأين توجد هذه الصفة يا قليلة المعرفة ؟ قالت عند مولانا وكهفنا ومأوانا الرئيس الأعلى ، الشهاب الأجلى ، القمر الزاهر ، الملك الظاهر ، الذى أعز المسلمين بنعمته ، وأذل المشركين بنقمته ...

الفصل الثامن

مقامة الوباء للفقيه عمر المالقى

" أزهار الرياض " للمقرى ككتابه الآخر الأشهر منه " نفح الطيب " خزانة حائك تستطيع أن تجد فيها كل شىء : أخبارا تاريخية ، وأثرية ، وأوصافا جغرافية ، وتراجم ، مئات الأبيات من الشعر ، وبالرغم من أن المؤلف نقل صفحات كاملة فيما بعد فى « نفح الطيب » وتوجد أخبار ونصوص فى الوسع أن نجدها فى مصادر أخرى ، فإن الذى يبقى مادة يعتد بها تنتظر نخلا وتحليلا ، تلقى ضوءا صافيا على نقاط كثيرة من تاريخ المسلمين وأدبهم فى إسبانيا .

يحتوى الجزء الأول من طبعة القاهرة [١] (وكان قد طبع من قبل فى تونس سنة ١٣٢٢ هـ ، وهو الجزء الوحيد من هذه الطبعة الأولى الذى رأى النور) على مقامة تحمل عنوان " مقامة فى الوباء " تحتل الصفحات ١٢٥ - ١٣٢ ترجمتها لأهميتها ، وأضع بين يدى الترجمة التى تأتى فى الصفحات التالية بعض الملاحظات عن الكاتب ومصنفاته .

المقامة مؤرخة فى شهر ربيع الثانى من سنة ٨٤٤ هـ ، ويوافق اليوم الأول من هذا الشهر ٣٠ من أغسطس سنة ١٤٤٠ م ، فهى إذن كتبت قبل نصف قرن من سقوط غرناطة ، وتمثل بهذا أحد النصوص الأدبية الأخيرة فى إسبانيا العربية ، وأسلوبها بالنثر المسجوع الذى كتبت فيه يصبح - كما هى العادة - أكثر من أن يكون صعبا ، ويعسر نقله إلى إسبانية تقرأ ، أما اسم الكاتب فهو فقط الفقيه عمر المالقى ، وتسبق مقامته هذه مقامة أخرى له عنوانها " تسريح النصال إلى مقاتل الفصال " [٢] .

وللكاتب نفسه ثلاث مقطوعات من الشعر عدة كل منها بيتان ، وأخرى من ثلاثة أبيات ، يضاف إليها بعض أخبار مقتضبة ليست - فى جلها - إلا مديحا [٣] .

التاريخ المتأخر الذى ظهر فيه هذا الكاتب ، وقلة المراجع المعاصرة جعلا جهودنا فى العثور على أخباره غير مجدية ، لم يظهر فى بروكلمان ، ولا فى فهارس «نفح الطيب» Analectes ، ولم يثبت فى وثائق قديرة Codera ، وكالعادة فى مرات كثيرة ليس لنا سوى الرجوع إلى المقرى نفسه ، فى القسم الثانى من «نفح الطيب» ينشر من جديد " تسريح النصال " مضمومة إلى قصائد نونية [٤] مختلفة ، وللأسف فعند الحديث عن كاتبنا هذا لا يزال افقر منه فى " أزهار الرياض " ، مقتصرا على بعض الجمل التى يعيد فيها ما سبق أن قاله مع الكلمات ذاتها تقريبا ، بل إنه يحذف نسبته " المالقى " .

علينا إذن أن نتخلى عن شجرة النسب الطويلة التى اعتاد أن يقدمها لنا المؤرخون العرب فى ترجماتهم ، يدعوه المقرى – فقط – الفقيه عمر المالقى ، أما كونه فقيها فشىء موثوق به كل الثقة ، ويقضى ذلك تضلعه الذى يزهو به فى السبع الصفحات التى يحويها النص المنشور لمقامته فى أمر الوباء ، نفس الثقة فى كونه مالقيا يمكن أن نذكرها كذلك : فقراءة المقامة لا تدع للشك مجالا .

ذكر اسمه بالصورة التى ورد بها – فى إيجاز – يجعلنا نظن أنه يتحدث عن شخصية كانت معروفة وشعبية فى زمنه ، الحقيقة أن صاحبنا هذا كان زجالا (صاحب أزجال) [٥] ، وعرف بعمق أزجال ابن قزمان ، ومدغليش حسب ما يروى هو نفسه ، يذكره المقرى قائلا : " أما الفقيه عمر فهو أشهر من نار على علم ، وأزجاله ومنظوماته ومقاماته عند العامة محفوظة ، وعند الخاصة مرفوضة إلا القليل الذى يسمح فى مثله لصاحب القلم ، كمقامته التى سماها تسريح النصال إلى مقاتل الفصال " [٦] ، بعد ذلك ينقل المقرى نص هذه المقامة التى تستهل بمقدمة من النثر المسجوع فى اثنى عشر سطرا ، وبقصيدة نونية من ثمانين بيتا من بحر الطويل ، حذف المقرى منها خمسة أبيات لما تحويه من بذاءة [٧] ، وإن كان فى «نفح الطيب» لم يجد حرجا من إثباتها [٨] ، وقد وضع المقرى الفقيه أبا عمر بين الأدباء الذى بلغوا قمة البلاغة [٩] ، وظلت شهرته سائرة بعد موته لوقت طويل ، يقول المقرى : " وأخباره لم تزل إلى الآن سمر " [١٠] .

للأسف لم يحفظ لنا المقرى أزجال واحد من هؤلاء المتأخرين من شعراء الأندلس الذين كانت العامة تعرف أزجالهم عن ظهر قلب ، نستطيع أن نأخذ فكرة عن الموضوع من قراءة " تسريح النصال " – التى بدون شواهد أخرى لدينا – تغدو – فضلا عن ذلك ذات أهمية فائقة نتعرف من خلالها على شخصية الشاعر – على الأقل فى حقبة

معينة من حياته – قرظ المقرى هذه المقامة تقريظا حسنا رغم مجون الشاعر [١١]. يرتسم لنا الكاتب صعلوكا محتالا ، يترقب فرصة سانحة ، ليحصل على منفعة ما ، والمقدمة الموجزة فى نثر مسجوع هى توسل إلى ساسان ، شيخ الطريقة الساسانية [١٢] التى يعترف صاحبنا مرات كثيرة بأنه مريد مخلص لها :

" يا عماد السالكين ، ومحط رحال المستفيدين والمتبركين ، وثمال الضعفاء والمساكين والمتروكين ، فى طريقتك يتنافس المتنافس ، وعلى أعطافك تزهى العباءات وتروق الدلافس ، وبكتابك تحيا جوامد الأفهام ، وبمذبتك تشرد ذباب الأوهام ، وفى زنبيلك يدس التالد والطارف ، وبعصاك يهش على بدائع المعارف ، الله الله فى سالك ، ضاقت عليه المسالك ، وشاد ، رمى بالبعاد ، أدركته متاعب الحرفة ، وأقيم من صف أهل الصفة [١٣] ، فلا يجد نشاطا على ما يتعاطى ، ولا يلقى اغتباطا ، وإن حل زاوية أو نزل رباطا ، أقصى عن أهل القرب والتخصيص ، وابتلى بمثل حالة برصيص [١٤] ، فأحيل عليك ، وتوقفت إقالته على توبة بين يديك ، فكاتبك استدعاء ، واستوهب منك هداية ودعاء ، ليسير على ما سويت ، ويتحمل عنك أشتات مارويت ، فليقى الأكفاء الظرفاء عزيزا ، ويباهى بك كل من خاطبك مستجيزا ، فاصرف إلى محيا الرضا ، وأعد من إيناسك العهد الذى مضى ، ولا تلقنى معرضا ولا معرضا ، وأصغ إلى سمعك كما قدر الله وقضى " .

بعد هذه المقدمة يدعو الشاعر إلى إحياء الطريقة الساسانية التى وضعها مرور الغداة وكر العشى فى محك الاختبار فيقول :

تعال نجددها طريقة ساسان ... وعض عليها ما توالى الجديدان

ونصرف إليها من مثار عزائم ... ونحلف عليها من مؤكد أيمان

ونعقد على حكم الوفاء هواءنا ... لنأمن من أقوال زور وبهتان

ونقسم على ألا نصدق واشيا ... يروح ويغدو بين إثم وعدوان

يطوف حوالينا ليفسد بيننا ... بمنطق إنسان وخدعة شيطان

على أننا فى عالم كلما بدا ... تعوذ منه عالم الإنس والجان

(الأبيات من ٣ – ٨) ثم يقول فيما بعد :

ألا فـادع لى فى جنح لـيلك دعـوة　　　لتنجح آمـالى ويرجح مـيـزانى

(البيت الثامن عشر) .

وفى الأبيات التالية إشارة إلى أنه مطلع على الأدب العربى القديم ، والأدب الأندلسى . فذكر الفتح بن خاقان (البيت ٢٢) ، وابن دراج القسطلى (البيت ٢٤) ، وابن سبعين (البيت ٧٢) ، كما يذكر شخصيات من التاريخ الإسبانى مثل لذريق ويليان (البيت ٣٠) ، وبنى ذى النون (البيت ٥٢) إلى آخره ، أما البيت رقم ٦٣ فله أهميته : لأنه يكشف فيه روايته الأدبية :

ألا فـاجـزنى يا إمـامـى بكل مـا　　　رويت لمدغليش أو لابن قـزمـان

وفى نهاية المقامة يذكر المقرى هذا التنبيه فيقول : " وأثبتها – أى المقامة – لأنها أخف ما رأيت من هزليات الفقيه عمر المالقى رحمه الله وسامحه ، ومثل هذا الهزل قد وقع لكثير من الأئمة على سبيل الإحماض ، ولم يعنوا بها غالبا إلا إظهار البراعة والاقتدار كما فعل الحريرى وغير واحد ، والأعمال بالنيات " [١٥] .

ولا ينبغى أن نحمل كلمات المقرى المتسامحة محمل الجد ؛ لأنه هو نفسه أثبت بيتين يتوجع فيهما الفقيه عمر من خيانة صديق :

إلى الله ربى أشتكى سـوء حـالتى　　　عسـى فـرج يأتى بأفـضل حـال

ومـا أسـفى إلا لمـا لى أبيعـه　　　وخـائن مـالى يشـتـريه بمالى [١٦]

وثمة بيتان آخران لهما صبغة دينية أحدهما ذو مغزى أيضا :

جـئـتك يـارب ولا عـذر لى　　　وهل لعـبـد السوء من مـعـذره ؟

أرجـوك فـيـمـا أنت أهـل لـه　　　فـأنـت أهل العـفـو والمغـفـره [١٧]

وقد ظل الشاعر يغرد إلى آخر أيام حياته ، ذكر لنا المقرى هذين البيتين اللذين قالهما فى مرض وفاته :

يا سامعي الكلام مختلطا نظما ونثرا ، قلائدا ودرر
صلوا على المصطفى وسيلتنا محمد ، وارحموا الفقيه عمر [١٨].

يقول المقرى : " ومن أبدع ما صدر عنه رحمه الله مقامة فى أمر الوباء ، رأيت أن أثبتها لغرابة منزعها ، وإن كان بعض فصولها لا يجرى على المشهور من مذاهب العلماء " [١٩] .

وضع الفقيه عمر على لسان مالقة رسالة موجهة إلى حمراء غرناطة لمحاولة أن يزمع السلطان وحاشيته رحيلا إلى هذه المدينة لوجود الوباء فى عاصمة النصريين والسلطان المشار إليه ، والذى يسميه فقط بالغالب بالله [تصحيف الغالب بأمر الله] هو محمد التاسع الأيسر ، المنبوز بالأعسر فى المصادر القشتالية [٢٠] ، ففى العام الذى أرخت فيه المقامة ٨٤٤ = ١٤٤٠ كان يحكم هذا الملك للمرة الثالثة ، وفى نهاية هذا العام وصلت سفارته إلى السلطان المملوكى الظاهر جقمق [٢١] .

لم أعثر على خبر وباء فى سنة ١٤٤٠ ، فالمصادر المسيحية تتحدث عن وباء تفشى فى قشتالة سنة ١٤٣٧ [٢٢] ، وعن آخر كان فى قرطبة سنة ١٤٤٢ [٢٣] ، ربما كان فى غرناطة بؤرة صغيرة ، أو وصل تحذير إلى مسامع صاحبنا الفقيه فاتخذه ذريعة ليكتب هذه المقامة ، فعلى أية حال لم يكن له من الأهمية ليترك صدى فى المصادر المسيحية .

كان الفقيه عمر مشغوفا ببلدته الصغيرة ، وبصفته رجلا ريفيا - بمعنى الكلمة - كان يشعر بالغيرة من العاصمة التى بوأها مكانا حسنا ، لكنه بالنسبة لمالقة يفديها بمهجته ، وفى غرناطة كانت هناك مصالح هامة ، أو أسباب سياسية تمنع السلطان من الرحيل إلى مالقة ، ربما كان يثقل كاهله حديث شريف يشير إليه الفقيه إشارة عابرة ؛ لأنه معروف بما فيه الكفاية ، ويترتب على تأويل الحديث قضية دينية يقوم الفقيه بتقديم حل لها - برغم كلماته - على نحو غير سُنِّى تماما [٢٤] .

وغريب أن الفقيه الذى يهتم شخصيا بذهاب السلطان إلى مالقة ، لم يذكِّر الأيسر بالترحيب الذى أولته إياه مالقة حينما ذهب إليها مخلوعا عن عرشه من قبل يوسف

الرابع ابن المول ، اللهم إلا إذا لم يكن يريد أن يذكره بذلك الخطر الذى كان يمثله ترك غرناطة بالنسبة له [٢٥] .

لا ندرى هل حقق الفقيه هدفه أم لا ؟ المظنون أن السلطان قد ظل فى العاصمة - إذ ليس لدينا أخبار عن رحيله - وأن الوباء لم يبلغ الدرجة التى رسمها الفقيه بمداد شديد القتامة ، المهم أن المقرى ضم إلى مصنفاته هذه الرسالة اللطيفة التى على الرغم من صنعة نثرها المسجوع فى فترة الانحطاط الأدبى التى كتبت فيها ، فإن لها سحرا خاصا فى الحديث عن مناظر مالقة ، فوصف الصباح لوحة مليئة بالحياة ، وليس هذا بشائع فى الأدب العربى ، يبدو الفقيه - عادة - مليئا بالفطنة ، وإن يكرر نفسه كثيرا ، فالتشبيه بالنملة والعصفور رؤية إسلامية " للجرادة والنملة " عند لافونتين ، وله نهاية أكثر جمالا ، ومغزى أكثر شاعرية مما هو تقليدى ملىء بالابتذال ، فإن شاعرا - فضلا عن أنه مالقى - لم يكن فى وسعه أن يجد حلا أفضل يتمشى وأفكاره وحياته نفسها .

هوامش

(١) أزهار الرياض فى أخبار القاضى عيّاض . تحقيق مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى ، القاهرة ١٩٣٩ – ١٩٤٢ . ظهر منه ثلاثة أجزاء ، ثم توقف النشر، وانظر إشارة موجزة عن الجزء الأول كتبه اميليو غرثيه غومث فى مجلة الأندلس ، العدد ٦ [١٩٤١] ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ [نشر الجزء الرابع فيما بعد بالمغرب وأعيد نشر الأجزاء الثلاثة هناك أيضا – المترجم] .

(٢) راجع أزهار الرياض جـ ١ ص ١١٧ – ١٢٤ .

(٣) أزهار الرياض جـ ١ ص ١٢٥ ، ١٣٢ .

(٤) استخدمت طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد ، فى عشرة أجزاء ، القاهرة ١٩٤٩ ، وما يتعلق بالفقيه عمر موجود فى الجزء السادس ٣٤٥ – ٣٥٠ .

(٥) نفح الطيب جـ ٦ ص ٣٤٥ .

(٦) أزهار الرياض جـ ١ ص ١١٦ .

(٧) أزهار الرياض جـ ١ ص ١٢٢ : ثم ذكر خمسة أبيات أقذع فيها فلذا تركتها .

(٨) حسب الطبعة المذكورة من نفح الطيب فالأبيات الناقصة ثلاثة (أرقام ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥) وليس خمسة أبيات ، فيها يرسم بألوان حية سهرة حمراء .

(٩) أزهار الرياض جـ ١ ص ١١٥ .

(١٠) أزهار الرياض جـ ١ ص ١١٦ .

(١١) نفح الطيب جـ ٦ ص ٣٤٩ .

(١٢) ساسان هو شفيع الصعاليك والمتسولة ، والمشعوذة ، والمشتغلين بالعرائس المتحركة إلخ ، وهم قوم يعيشون الحياة متجولين ، ويحملون اسم " بنو ساسان " وينقل عن البعض – فى فارس على وجه الاحتمال عن دوائر مناهضة للساسانيين أن منشأها يرجع إلى ساسان بن اسفنديار أو ابن بهمان الذى صار راعيا ومتسولا بعد أن أقصى عن العرش من قبل أبيه لصالح أخته حماى . راجع دائرة المعارف الإسلامية ط أولى جـ ٤ عام ١٨٥٠ . مقال : غ . هـ كرامرز .

(١٣) أهل الصُفَّة ، تعرف بهذا الاسم جماعة من المسلمين صحبوا محمد - صلى الله عليه وسلم - فى هجرته إلى المدينة ، ولما لم يكن لديهم كسوة ولا طعام فقد عاشوا فى الصفة ، وهى الجزء الشمالى من المسجد تحت سقيفة دون جدران . كانوا يأكلون شعيرا مقددا مشترى على نفقة الجماعة . راجع دائرة المعارف الإسلامية طبعة أولى جـ ١ ص ١٨٩ ، مقال ريكيندورف ، وقد انتقل هذا الاسم ليدل على المشعوذ والصعلوك ، انظر أيضا دوزى . ملحق ١ ص ٨٣٤ ، " ولان " المعجم العربى الانجليزى جـ ١ ، جـ ٤ ١٦٩٤ عمود أ .

(١٤) شخصية فى رواية إسلامية معروفة جدا فى أدب الرحمة ، ولها علاقة بآية قرآنية (سورة الحشر ٥٩ : ١٦) ويبدو أن لها سابقة أقدم ، هو ناسك عاش سنوات طويلة فى صومعته ، وقد ارتكب خطيئة فى شيخوخته مع إحدى النساء ، ولكى يخفى جريمته قتلها ودفنها ، ويستمر إغراء الشيطان له الذى اكتشف الجريمة ، فيعرض على الشيخ أن ينقذه حينما ذهبوا يشنقونه شريطة أن يعبده ، وحينما فعل ذلك تخلى الشيطان عنه قائلا له إنه يخاف الله رب العالمين . راجع دائرة المعارف الإسلامية جـ ١ ص ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، مقال : د . ب . ماكدونالد ، ونص المقامة يقول برصيص للسجعة ، وبهذه اللفظة ظهر فى أحد أسماء الأماكن قصر عابد برصيص فى رحلة ابن بطوطة (ذكره ماكدونالد) وانتقل موضوع البرصيص إلى الأدب الإسبانى ، انظر مقال : أ . جونثالث بالنثيا . سوابق إسلامية لرواية جارين . مجلة الأندلس عدد ١ - ١٩٣٣ ص ٣٣٥ - ٣٥٥ .

(١٥) أزهار الرياض جـ ١ ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، الجملة الأخيرة حديث شريف معروف وعلى النمط ذاته ورد فى نفح الطيب ، راجع جـ ٦ ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(١٦) أزهار الرياض جـ ١ ص ١٢٥ .

(١٧) أزهار الرياض جـ ١ ص ١٣٢ .

(١٨) أزهار الرياض جـ ١ ص ١٣٢ .

(١٩) أزهار الرياض جـ ١ ص ١٢٥ .

(٢٠) راجع . ل . سيكو دى لوثينا " استدراكات جديدة حول تاريخ بنى نصر" فى مجلة الأندلس عدد ٢٠ سنة ١٩٥٥ ص ٣٨١ - ٤٠٥ على امتداد كل الصفحات Passim وراجع على وجه أخص ص ٣٩٩ - ٤٠٢ .

(٢١) انظر : عبد العزيز الأهوانى " سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة " فى مجلة كلية الآداب مجلد ٢٦ عدد ١ (القاهرة مايو ١٩٥٤) ص ٩٥ - ١٢١ ، وراجع كلمة سيكو دى لوثينا فى مجلة الأندلس عدد ٢ (١٩٥٥) ص ٢٣٩ - ٢٤١ ، الذى ترجم نص السفارة فى " رحلة إلى المشرق " : سفراء غرناطيون فى القاهرة ، فى منوعات من الدراسات العربية والعبرية فى غرناطة جـ ٤ (١٩٥٥) ص ٥ - ٣٠ .

(٢٢) راجع تاريخ مربى صقور خوان الثانى ، لبدرو كارّيو دى هويتى ، طبعة : خ . دى . م . كارياثو ، مدريد ١٩٤٦ ص ٢٤٦ ، وراجع إعادة تحرير تاريخ مربى الصقور الذى قام به الأسقف دون لوبى بارّينتوس طبعة خ . دى م كارياثو ، مدريد ١٩٤٦ ص ٢١٦ ، ٢١٩ فى الفصل ٣١٨ من تاريخ مربى الصقور ، الفصول التى بها الحكم الذى صدر ضد كونستابل (سنة ١٤٤١) تحكم على دون ألبرو " أن يظل ست سنوات فى ضياعه فى سان مارتين دى بالدى إجليسياس إى رياثا وفى أراضيه كما يحلو له ... لكن إذا ما توفى أحد فيها خلال الست السنوات المذكورة هذه بالطاعون فى تلك الأماكن المذكورة ، ففى وسعه أن يمضى من سان مارتين فى الوقت الذى يموتون فيه إلى الكولينار وإذا كان فى رياثا فى الوقت الذى يموتون يستطيع أن يمضى إلى كاستيلنوبو " [ص ٤٢١ ، ٤٢٢] ويفهم منه أن هذه الطواعين كانت كثيرة فى هذه السنوات وغير شديدة ، وكانت تعم مناطق صغيرة ، ولعل مثل هذا قد حدث عام ١٤٤٠ فى غرناطة .

(٢٣) راجع لويس ماريا راميرث دى لاس كاساس ديثا ، حوليات مدينة قرطبة ، فى نشرة الأكاديمية الملكية للعلوم والفنون الجميلة فى قرطبة عدد ١٩ سنة ١٩٤٨ ص ٤٧ .

(٢٤) راجع فى هذه القضية رأى الغزالى عند أسين بلاثيوس " روحانية الغزالى ومفهومها فى المسيحية " مدريد ط ٢ سنة ١٩٣٥ ص ٤٢٩ - ٤٤٢ ، وانظر تحليلا لهذه المسألة قام به جولدزيهر فى Die Richtungen Der Islamischen Koranauslegung. Leiden 1952, pp. 357 - 358. عند دراسته للحديث نفسه .

(٢٥) لا ينبغى أن ننسى أيضا أنه فى هذا التاريخ كان الملك النصرى مشغولا للغاية بمفاوضاته مع خوان الثانى القشتالى ، انظر مذكرات تاريخية نقدية حول الهدنة المعقودة عام ١٤٣٩ بين ملكى قشتالة وغرناطة بقلم خوسيه أمادور دى لوس ريوس ، فى حوليات تجمع التاريخ الملكى رقم ٩ لسنة [١٨٧٩ ، المذكرة الرابعة] .

مقامته فى أمر الوباء

إلى حمراء الملك وقلعته ، ومقر العز ومنعته ، ومطلع كل قمر نصرى يخجل الأقمار بطلعته ، أبقاها الله على تعاقب الزمان ، منزل أمان ودار إيمان ، وأمتعها بحياة الملك الخزرجى اليمان ، من موجبة إجلالها كما يجب ، المعترفة بفضلها وشرفها وأنوار الشمس لا تحتجب ، والواقفة عند إشارتها وطاعتها ، فإن تأمر أمتثل وإن تدع أستجب ، مالقة ، المستمسكة بذمتها الوثيقة ، المتشوقة إلى أخبارها تشوق المحبة الشفيقة ، إلى ريحانة قلبها فى الحقيقة ، وإلى هذا يا سيدتى ويا عدتى ؛ ويا ذخيرتى ويا عمدتى ، أمتعنا الله وإياك بحياة من استنقذنا من الورطات ، وردنا من الصواب مما كان منا من الغلطات ، مولانا الغالب بالله وحده ، الموعود بعزيز النصر وقريب الفتح ، والله ميسر وعده .

سلام عليك يتعطر بذكر مولانا أمير المسلمين فوحه ، وينشق كالمسك الفتيت روحه ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد ، فإنى أحمد إليك الله الذى إذا استكفى بعزته كفى ، وإذا استُشفى بكلمته شفى ، وإذا سئل بواسع رحمته عفا ، وأصلى على رسوله محمد الكريم المصطفى ، وعلى آله وأصحابه ، أكرم من نصح له وأخلص ووفى .

كتبته إليك يا سيدتى عن نفس قلقة ، ساهرة أرقة ، حاذرة مشفقة ، ملهبة بل محترقة ، وإنى أقسم عليك بالرب الذى كرمك بالعز وشرفك ، وعرفك من لطائف الفرج بعد الشدة ما عرفك أن تسعدينى على تسكين لوعتى ، وتأمين روعتى ، وتراجع رقادى بعد سهادى وقضاء حاجة جلت فى فؤادى ، وتفهمى مراد إشارتى وإشارة مرادى ، وتتركى هوى النفس الذى هو للحق معاند ، وللرشد معادى .

ومبنى هذه الرسالة إليك على قولهم : «الشفيق مولع بسوء الظن » ومن منن الله على عبده الوقاية من المتالف جل الله العظيم المن ، وعلى قول المتبنى :

ربما ضـــر عـــاشـق مـــعـــشـــوقـــا ومن البـــر مـــا يـكون عـــقـــوقـــا .

والمثل الأول لى . والآخر لك ، والله ييسر فى حفظ مولانا أملى وأملك .

وإنى أتعجب من مساعدتك على إقامة مولانا بمنزل ، هذا المرض به فاش ، وهذا الهواء الفاسد بين دياره جاء وماش ، وسمعت أن حديث السفر لمالقة أثقل عليك من حديث رقيب وعاذل وواش ، وأن الآراء فى ذلك اختلفت ، ولم يرجع فيها إلى سنن تقدمت وعوائد سلفت ، والأوائل من المؤمنين رحمهم الله ما تركوا شيئا سدى ، بل نصبوا على كل طريق إلى النجاة علم هدى ، وسمعت يا سيدتى أن القضية عول فيها على المقام والاستسلام وخولف فيها رأى الخليفة الرشيد لما تحول فى مثلها عن سكنى دار السلام ، بمحضر أركان الدين وأعلام الإسلام ، وقد سمعت فى الأجوبة الظريفة ، ما هو صدر من قوله : أخشى أن أكون أول خليفة ، وقد كنت يا سيدتى أرتجى أن يكون لهذا المرض ارتفاع ، أو يحصل بدخول فصل البرد انتفاع ، فتركت الكتب منتظرة لذلك ، إلى أن تزايدت الحال وأنت على حالك ، لا يمر الترحال بخاطرك ولا ببالك ، وأقول : أمّا واجب التسليم لتقدير العزيز العليم ، فمتأكد شرعا ، لا يضيق به المؤمن ذرعا ، لكن ما يفعل المستسلم بالروح والجسد ، إذا قيل له اهرب من الأسد ، وقد أبصره مقبلا إليه ، أو منقضا عليه ، أيأخذ فى تحفظه واحتراسه ، أم يصبر لافتراسه ؟ ومن قيل له فى ظلم الليل : ارتفع عن هذا المكان تنج من السيل ، أينام فى مكانه ، أم يبادر إلى السلامة بجهد إمكانه ؟ ومن نودى : هذه الخيل قد طلعت مغيرة ، والرعاة بالجبال مستجيرة ، فارفع غنمك قبل الاكتساح ، فالوقت فى انفساح ، أيتركها تسرح ، ولا يبرح ، أم يرفعها لتسلم ، مما تدرب وتعلم ؟ وكذلك إذا قامت الرعاة صفوفا ، وأصابت سهامها فى الخلق ألوفا ، أيرجح الحق تباعدا أم وقوفا ؟ وكذلك أيضا المنازل ، التى تدوم بها الزلازل ، فأرضها فى كل يوم تميد ، ودهش القلوب بها حاضر عتيد ، والخسف بها فى كل يوم ينقص وفى يوم يزيد ، لا تسمع فيها إلا سقوط جدار ، على ركن دار ، وانفكاك الأركان ، على السكان ، وإخراج ميت ، من تحت بيت ، وسقوط سارية ، على جارية ، أيعزم على السكنى والاستيطان ، تحت هذه الحيطان ، أم يأخذ فى الاحتيال ، بالخروج بالأطفال والعيال ؟ يا سيدتى الحمراء ، سألتك فأخبرينى ، وإن تحير فهمى فاعذرينى ، ووصل إلىّ الكتاب الشريف ، من جنان العريف ، يذكر أن السلامة كانت به مستصحبة لمولانا ولناسه ، وأن العافية كانت بهم منتشقة مع أنفاس

رنده وآسه ، ما عرضت به إلى طبيب حاجة ، ولا استدعى فيه المعاور للنظر فى زجاجة ، ولا لقول ولا عمل ، ولا بلغ من الجساوة والقساوة أقل أمل ، ولم ينتقص من الساكنين بهذا البستان ، من عبيد مولانا السلطان ، غير فتى من الخصيان ، لا يساوى عشرة دراهم فى سوق الفتيان ، والجميع بحمد الله استمرت عافيتهم على استقامة ، بطول أيام الإقامة ، وعرفنى أيضا جنان العريف فى وافد كتابه ، ووارد خطابه ، أن رغبته كانت فى انتقال مولانا نصره الله من صحيح هوائه ، وسلسبيل مائه ، ونفحة جنابه . وتلاعب النسيم العاطر بين قبابه ، إلى مالقة حيث الجو الصقيل ، والروض الذى يطيب به المقيل ، والراحة التى تمتزج بالأرواح كما قيل ، حيث العرف الأرج ، والوادى المنعرج ، والساحل الذى ينشرح به الصدر الحرج ، حيث البنفسج يدير كئوس البهار ، والياسمين نجوم طالعة بالنهار ، حيث يتمازج طيب الزهر ، بعرف الأترج ونفحات السحر ، حيث يشبه أنين السوانى ، حنين المتعشقات من الغوانى ، إذا حمد الصباح ، وانفلق الإصباح وعمرت صغار القوارب ، ونادت بحرية الشباك إلى المضارب ، وسالت أنوار المشارق على جوانب المغارب ، ونادى محرك الجيش : ظهور الخيل ، وصباح الخير ، واستقبلوا الوادى الكبير لصيد الأرنب والحوت والطير ، شكر الله جنان العريف على ما قصد ونوى ، وعلى ما أظهر من اتباع حق ومخالفة هوى ، اعتمادا من أخبار الدول القديمة على ما حفظ وروى ، وقال لى يا سيدتى إنك وقفت مع الحديث المنصوص ، الوارد فى مثل هذا المرض على الخصوص ، وفيه النهى عن الخروج من منازل هذا المرض ومواضعه ، وعن القدوم على معتركاته ومصارعه ، والحديث صحيح ، والرشد فيه قول صريح ، ولكن للعلماء فيه أقوال طويلة التفصيل ، وقد لخصها وبيَّنها الإمام ابن رشد فى كتابه الجامع فى البيان والتحصيل ، والاتفاق من الجميع أن النهى فى هذا الحديث ليس بنهى تحريم ، وإنما هو على سبيل إرشاد وأدب وتعليم ، فلا إثم ولا حرج ، على من أقام ولا على من خرج ، وقال عمرو بن العاص : الأفضل الخروج لأهل الفطنة ، اتقاء من اعتقاد يؤدى إلى فتنة ، وكفى بعمرو بن العاص حجة لمن أراد انتصارا ، والكلام كثير ولكنى اختصرته اختصارا ، وإن نظرا قدَّمه كثير من الصحابة ورجَّحه ، لخليق بأن يقال فيه ما أسعده وما أنجحه ! ياليت تفقهى كله يكون من هذا القبيل ، وجاريا على خلاف المشهور من قول خليل ، وهنا يقال : ما فى هذه القلة غير

هذا الإغريل ، يا سيدتى الحمراء أراك فى هذه القضية تفقهت وتوقفت فيما بينه عالم وذو علم ، ومنعت مما ليس فيه حرج ولا إثم ، ولو كنت حاضرة لكان لى معك حديث طويل ، واحتجاج ينصره نص وتأويل ، وسمعت أنك أشفقت من عظيم النفقة ، وليس هذا موضع الشفقة ، فالأمن ليس بغال ، ولو يشترى بكل ذخيرة وكل مال ، والأولى بالملامة ، من يفضل شيئا على السلامة ، القمح يأكله السوس ، والذهب تغنى عنه الفلوس ، فكيف يُستعظمان فيما تؤمن به النفوس ، وبلغنى أنك قلت : مالقة ليس بها زرع ، وبقليل المقام يضيق لها صدر وذرع ، وفلاحتها وحرثها ليس لهما أصل ولا فرع ، وعزّ علىّ هذا الكلام ، ولكننى سلمت والسلام ، فإن سعرى عن سعر غرناطة منحط ، وفى لمحة بصر يضيق منى بالطعام فى كثير من الأيام ساحل وشط ، ولا يُعلم أنه دامت لى شدة قط ، لى فى الاعتصام بالتوكل على الله ما يزيد على سبع مئة العام ، ما أشغلت فيها فكرا ولا قلبا بادخار قوت ولا باحتكار طعام ، أثق فى اليوم والغد ، بالرزق الرغد ، تأتى به الرياح على الأعناق ، ويفيض سيله على جوانب الدواوين وأكناف الأسواق ، وتجلبه الأحباب والأعداء بإذن اللطيف الخبير الوهاب الرزاق .

قالت النملة : افتخارى بادخارى ، قالت العصفورة : توسلى بتوكلى ، قالت النملة : أعتمد على الحب ، قالت العصفورة : أتوكل على الرب . فلما جن الليل ، أقبل السيل ، فخرجت النملة بالعوم ، وبقيت الحبوب بين الدوم ، فنزلت العصفورة وسجدت والتقطت من مدخر النملة كل ما وجدت ، وقالت : خسر المحتكر ، وربح طالب الرزق المبتكر ، الكريم لا يفتخر بما يدخر .

وصح عندى أن الوزير أعزه الله ليس عنده فى هذا كله كلام ولا قول ، وأن الأمر عنده مفوض إلى الرب الذى له القوة والحول ، وسمعت يا سيدتى أن هذا السقم ، أعظم تأثيره إنما هو فى قطع الأكباد ، من صغار الأولاد ، الذين من فوق السبع ودون العشر ، وهم فى هذه السنين رياحين القلوب العاطرة النشر ، وهذا إلى كتبى لك أعظم داع ، فإن الأولاد سوائم والوالد راع ، والراعى لا يترك غنمه فى طريق سبع ضارٍ ، ولا قريبا من حريق نارٍ ، ونحن نشاهد الطير ينقل أفراخه من وكر إلى وكر ، ويسترها بملتف الشجر إذا خاف عليها عادية جارح أو صاحب مكر ، فكيف لا نقتدى فى تأمين روعتنا بمن تقدم من الأكابر ، ونقف فى حامل السيل بأولادنا الأصاغر ، فما عندك فى

هذا كله من القول ومن الجواب ؟ وما يظهر لك من وجه الرأى والصواب ؟ اكتبى بذلك كتابا أعتمد عليه ، وأستند إليه ، وقبِّلى عنى يد مولانا تقبيلا ، ويااليتنى وجدت إلى ذلك سبيلا ، وأخبريه أنى فى خدمته على نيتى الأولى ، عاكفة على شكر منته الطولى ، أدام الله حياطة البلاد والنفوس بحفظه وحياطته ، وأسمعنى البشارة بقدومه على محدث مالقة من حمراء غرناطته ، ويحفظه فى النفس والأولاد ، والملك والبلاد ، بمنه وفضله .

كتب بتاريخ ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وثمان مئة .

المراجع العربية

- البكرى (أبو عبيد) . فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد البكرى وهو شرح لكتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام . طبعة إحسان عباس وعبد المجيد عابدين . بيروت ١٣٩١ / ١٩٧١ .
- الضبى . كتاب بغية الملتمس . طبعة فرانسسكو قديرة وخوليان ريبيرا مدريد ١٨٨٥ .
- الحميدى . جذوة المقتبس . طبعة ابن تاويت الطنجى . القاهرة ١٣٧٢ - ١٩٥٢ .
- ابن الأبار . كتاب التكملة لكتاب الصلة . طبعة فرانسسكو قديرة . مدريد ١٨٨٧ - ١٨٨٩ . فى مجلدين .
- ابن عبد الملك . كتاب الذيل والتكملة . (يتوالى نشره) جـ ٤ ، ٥ طبعة إحسان عباس . بيروت دون تاريخ (١٩٦٤ ، ١٩٦٥)
- ابن بسام . الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة . طبعة كلية آداب القاهرة ١/١ ، ٢ ، ١/٤ . القاهرة ١٣٥٨ - ١٩٣٩/٦٤ - ٤٥ .
- ابن بشكوال . كتاب الصلة . طبعة فرانسسكو قديرة . مدريد ١٨٨٢ - ٨٣ . مجلدان .
- ابن عذارى . البيان المغرب جـ ٣ . طبعة ليفى بروفنسال . باريس ١٩٣٠ .
- ابن إدريس (صفوان) كتاب زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر طبعة عبد القادر مهداد . بيروت ١٣٥٨ / ١٩٣٩ .
- ابن الخطيب . الإحاطة فى أخبار غرناطة جـ ١ . طبعة محمد عبد الله عنان . القاهرة دون تاريخ (١٩٥٥) .
- ابن الخطيب . الإحاطة فى أخبار غرناطة . مخطوط . مكتبة الاسكوريال رقم ١٦٧٣ .

- ابن الخطيب . مركز الإحاطة بأدباء غرناطة . مخطوط . المكتبة الأهلية بباريس رقم ٣٣٤٧ .

- ابن خاقان . مطمح الأنفس فى ملح أهل الأندلس . قسطنطينة ١٣٠٢ .

- ابن خير . فهرسة ما رواه عن شيوخه . طبعة فرانسسكو قديرة . وخوليان ريبيرا . سرقسطة ١٨٩٤ - ٩٥ .

- ابن منظور . لسان العرب - بولاق : ١٣٠٠ - ١٣٠٨ . فى عشرين جزءاً .

- ابن سعيد . المغرب فى حلى المغرب . طبعة شوقى ضيف . القاهرة (١٩٥٣) مجلدان .

- ابن سعيد . رايات المبرزين . انظر إميليو غرثيه غومث فى ترجمته لهذا الكتاب إلى الإسبانية .

- ابن الزبير . كتاب صلة الصلة . طبعة ليفى بروفنسال . الرباط ١٩٣٧ .

- المقرى . نفح الطيب . طبعة دوزى وآخرين . ليدن ١٨٥٥ - ٦١ . مجلدان .

- المقرى . أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض . طبعة مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى . القاهرة ١٣٥٨ - ١٣٦١ / ١٩٣٩ - ١٩٤٢ ثلاثة مجلدات .

- المقرى . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب . طبعة محيى الدين عبد الحميد . القاهرة ١٣٦٧ / ١٩٤٩ . عشرة أجزاء .

- الرعينى . برنامج شيوخ الرعينى . طبعة إبراهيم شبوح . دمشق ١٣٨١ / ١٩٦٢ .

- الثعالبى . التمثيل والمحاضرة . طبعة عبد الفتاح الحلو - القاهرة ١٣٨١ / ١٩٦١ .

- ياقوت . معجم الأدباء . طبعة أحمد فريد رفاعى . القاهرة ١٣٥٥ - ٥٧ / ١٩٣٦ - ٣٨, فى عشرين جزءاً .

المراجع الأجنبية

Alcala, Pedro de, Petri Hispani de lingua arabica libri duo, ed. paul de Lagarde, Gottinga 1883.

Arie, Rachel, Notes sur la Maqàma andalouse, apud Hepéris-Tamuda, IX-1 (1968), pp. 201 - 217.

BROCKELMANN, Carl, Geschichte der arabischen Litteratur (GAL), 2ª ed., Leiden 1943-49, 2 vols.; Supplementband I, II y III, Leiden 1937-42.

DERENBOURG, Hartwig, Les manuscrits arabes de l'Escurial, Tome I, Paris 1884.

DOZY, R., Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge, 3ª ed., Leyde 1881, 2 vols.

DOZY, R., Supplément aux dictionnaires arabes, 2ª ed., Leyden-Paris 1927, 2 vols.

Encyclopédie de L'Islām (= Enc Islam [1]), Dictionnaire Géographique, Ethongraphique et biographique des peuples muslimanes, publié... par M. Th. Houtsma, R. Basset, T. W. Arnold et R Hertmann, Leide-Paris 1913 - 1942, 4 vols, más I Suplemento.

Encyclopédie de L'Islam, Nouvelle édition (= Enc Islam [2]).., établie par ... H. A. Gibb, J. H. Krammers, E. Lévi-Provençal, J. Schacht, Leyde París, en curso de publicación desde 1954.

FREYTAG, G. W., Arabum Proverbia, Bonn 1838-43, 4 vols.

GARCIA GOMEZ, Emilio, Cinco poetas musulmanes, biografías y estudios, Madrid 1944.

GARCÍA GOMEZ, Emilio, El libro de las banderas de los campeones, de Ibn Sáid al-Magribí, Madrid 1942.

LANE, Edward William, An Arabic-English Lexicon, London-Edinburgh 1863-93, 8 Vols.

NYKL, A. E., Hispano-Arabic Poetry and its relations with the old provençal troubadours, Baltimore 1946.

PERES, Henri, La poésie andalouse en arabe classique au XIᵉ siècle : ses aspects généraux, ses principaux thèmes et sa valeur documentaire, 2ª ed., Paris 1953.

الإشــراف الفنــى : حســــن كــامــل



إذا كان الشعر الأندلسى قد حظى بدراسات كثيرة فى اللغة العربية واللغات الأجنبية؛ فإن النثر الأندلسى لم يحظ بمثل هذا النصيب، وبخاصة مقاماته. وهو غبن كبير لضرب من الفن كان ذا سلطان عظيم على الأذواق الأدبية أمدًا بعيدًا حتى العصر الحديث. كتب فيه المويلحى، وحافظ إبراهيم، وكذلك العقاد فى مستهل حياته الأدبية، حتى ارتأى بعض النقاد أن هذا الضرب من الفن هو الأب الشرعى للقصة العربية.

هذا الغبن من قبل الدارسين للمقامات الأندلسية هو ما دفع المترجم إلى ترجمة هذه الدراسات من الإسبانية إلى العربية، علها تكون خطوة تقفوها خطوات.

